الفصل الثاني:

التأطـــير

خلال الربع الثاني للقرن التاسعَ عشرَ، جرى تحويل المصريين إلى سجناء رؤوسهم لقراهم. وذلك أن مرسومًا حكوميًا صدر في يناير ١٨٣٠ قد قَصَر تحركهم على مساقط رءوسهم، واشترط حصولَهم على تصريح ووثائق تحديد للشخصية إذا كانوا يرغبون في السفر إلى خارجها. ويقال لنا إنه «كان من النادر أن يتمكن فلاح من الانتقال من قرية إلى أخرى دون جواز سفر مكتوب». وقد قُدِّر للقرية أن تُدار كثُكنة، وأن يُوضَع سكانُها تحت مراقبة الحراس ليلاً ونهاراً، وتحت مراقبة المفتشين وهم يفلحون الأرض ويسلمون نتاجها لمستودعات الحكومة»(١).

لم يكن أحد قد فكر من قبل في تنظيم مصر بالطريقة التي يجري بها إسكان جيش في ثُكنات وفرض الانضباط عليه، والحال أن مرسومات حجز السكان وتنظيمهم ومراقبتهم قد نزلت عليهم فجأة. وأينما ولى الناسُ أبصارَهم، كان يتعين تفتيشهم أو مراقبتهم أو إصدار التعليمات إليهم. وإذا ما غادروا القرية، فإن ذلك كان يحدث عمومًا تحت حراسة، مجرورين بالقوة إلى انضباط السخرة الأكثر قوة بكثير وإلى انضباط المعسكر - إن لم يكونوا «فارِّين» هجروا بيوتهم وهربوا، كما أخذ يفعل ذلك عشرات الآلاف. وإذا كانوا حراسًا بدلاً من أن يكونوا محروسين، فإنهم مع ذلك لم يفلتوا من المراقبة، فقد جرى زرع الجواسيس في كل موقع، وقُدِّر لهرمية المراقبة والتفتيش أن تتصاعد من الحقل والحانوت، عبر مستويات المراقبة في القرية، والناحية والبندر والمديرية، إلى دواوين التفتيش المركزية الواقعة تحت مراقبة الوالي المباشرة(٢).

والحال أن محاولة السيطرة من القاهرة على الثروة الزراعية لوادي النيل لم تكن في حد ذاتها شيئًا جديدًا. فقبل ذلك بخمسين سنة، كانت أسرة قوية واحدة قد تمكنت من إلحاق الهزيمة بجميع مراكز السلطة الأخرى في البلد وتسنَّى لها أن تفرض، على مدار عقد من الزمان، سيطرةً لا منازع لها على إيراداته الزراعية والتجارية - مشجعة، كنتيجة لذلك،

(1) Bayle St John, Village Life in Egypt, 2 vols. (London, 1852), 1: 35; Helen Riviln, The Agricultural Policy of Muhammad Ali in Egypt, pp. 89- 101;

وفيما يتعلق بالسياسة المصرية عموما في هذه الفترة انظر

Afaf Lutfi Al- Sayyid Marsot, Egypt in the Reign of Muhammad Ali, pp. 100-61.

(2) Jean Deny, Sommaire des archives turques du Caire, (Cairo, 1930). Pp. 126-9 Rivin, Agricultural Policy, pp. 79, 89- 101

اندراج القاهرة التدريجي في التجارة العالمية الأوروبية[١]. أما ما كان جديدًا في القرن التاسعَ عشرَ فهو طبيعة السيطرة. فالأنواع الأسبق من السلطة مهما كانت مركزيتها، لم تكن قطُّ متواصلةً. لقد كانت تعمل بصورة متقطعة وكذلك بصورة نمطية، في شكل جبايات وواجبات وإتاوات مفروضة على أُسَر أقلَّ قوةً، كانت تَفرض بدورها جبايات على الأسر الأقلِّ قوةً حولها، وهكذا دواليك. والحال أن المُتدَفِّقات غيرَ المنتظمة من الإيرادات نحو المركز دائمًا ما كان يُضعِفُها التسريب الذي لم يكن هناك مفرٌّ من حدوثه عند كل منعطف، والحاجة إلى التوسع الخارجي والميل الطارد عن المركز إلى التفكك والانهيار[٢]، واعتبارًا من القرن التاسعَ عشرَ، حاولت السلطةُ السياسيةُ لأول مرة، العملَ بأسلوب متواصل وشديد التدقيق ومنتظم الأشكال، ولم يَعد المنهج هو مجرد أخذ نصيب مما يجري إنتاجه وتبادله، بل الدخولُ في عملية الإنتاج. وعن طريق مراقبة كل جانب من جوانبها بصورة منفصلة ودون انقطاع، حاولت السلطة السياسية ضبطَ، وتنسيقَ وزيادةَ ما أصبح يجري النظرُ إليه بوصفه «القوى المنتجة» للبلد. ولم يكن لاتجاه الآليات الانضباطية، كما سمَّى مشيل فُوكُوه هذه الاستراتيجيات الحديثةَ للسيطرة، أن يتمدَّدَ ويتبدَّدَ كما كان يحدث في السابق، بل أن يتغلغلَ، ويعيدَ التَنظيمَ، ويستعمر[٣].

وتتركز تحليلات فُوكُوه على فرنسا وأوروبا الشمالية، ولعل هذا التركيز يكون قد أفضى إلى تعمية الطبيعة المستَعمِرة للسلطة الانضباطية، على أن البانوبتيكون، المؤسسة النموذجية التي

(1) See Daniel Crecelius, The Roots of Modern Egypt: A study of the Regimes of Ali Bey al-kabir and Muhammad Bey Abu al- Dhahab, 1760- 1775;

وفيما يتعلق بالتغيرات الثقافية في هذه الفترة الأسبق، انظر

Peter Gran, Islamic Roots of Capitalism, 1760- 1840.

وأنا شاكر لبيتر جران لتعليقاته على بعض فصول هذا الكتاب في شكل سابق لها.

(٢) يحلل ألبيرت حوراني طبيعة هذه الأسر وسلطتها، وتحولها في القرن التاسعَ عشرَ في 'Ottoman reform and the politics of notables', in Beqinnings of Modernization in the Middle East the Nineteenth Century, ed. William R. Polk and Richard L. Chambers, pp. 41-68.

(3) Michel Foucault, 'Two lectures', in Power / Knowledge: Selected interviews and other writings 1972- 1977, pp. 78- 108, and Discipline and Punish: The Brith of the prison.

وتدين الصفحات التالية بكثير من تحليلها لطرق البحث التي شقها فُوكُوه، وترد عبارة «القوى المنتجة» في «تقرير عن مصر وكانديا» بقلم جون بورنِغ، صديق جيرِيمي بنتَام الذي كان مستشارًا للحكومة المصرية.

يخدم نظامها الهندسي ومراقبتها المعممة كموتيف(*) لهذا النوع من السلطة، كان ابتكاراً استعمارياً. وقد ابتُكرَ المبدأ البانوبتي على حدود أوروبا الاستعمارية مع الإمبراطورية العثمانية، وشُيِّدَت أمثلةٌ للبانوبتيكون على الأغلب ليس في أوروبا الشمالية وإنما في أماكنَ كالهند المستعمَرة[1]. ويمكن قول الشيء نفسه عن المنهج الانضباطي للتعليم المدرسي، الذي ناقشه فُوكُوه أيضًا، والذي أصبح أسلوبه في تحسين مجموعة من السكان وضبطهم كما سوف نرى، يُعتَبَر العمليةَ السياسيةَ النموذجيةَ المصاحبةَ للتحويل الرأسمالي لمصر.

وسوف أفحص في هذا الفصل والفصل الذي يليه إدخال هذه الآليات الانضباطية في مصر الحديثة، متجهًا فيما بعد إلى النظر في ارتباطها بمناهج النظام والمعنى، التي أشرتُ إليها على أنها العالَم بوصفه مَعرضًا. وقد بدأ إدخالُها في ظل أسرة حاكمة تركية واحدة، هي أسرة محمد علي، التي حازتِ السلطة على مصر وعلى استقلال متزايد عن اسطنبول، بعد الاحتلال الفرنسي (١٧٩٨ - ١٨٠١م). والحال أن هذه السلطة قد آلت فيما بعد إلى اقتسامها وممارستها بين طبقة جديدة مالكة للأرض، تُمثِّل الأسرةُ الحاكمةُ أكبرَ مالك للأرض بينها، والدائنين والمصالح التجارية الأوروبية، واعتباراً من عام ١٨٨٢، نظام استعماري أوروبي[2]. أما الاستراتيجيات الأصلية للسيطرة الانضباطية التي صارت مثلُ هذه السلطة تستند إليها فقد وُجدت في إنشاء جيش مصري جديد.

فاعتباراً من عام ١٨٢٢، كان المصريون قد وجدوا أنفسَهم يؤخذون بعشرات الآلاف ويُحوَّلون، لأول مرة في التاريخ، إلى جنود[3]. وكانت القوات العسكرية لمصر العثمانية تتشكل في السابق من أجانبَ مجندين من الخارج، إلى جانب مصريين أصلاءَ وَرِثوا أو اشترَوا الحقَّ في الرواتب العسكرية. والحال أن هذه الحاميات الصغيرة، غيرَ المتفرِّغَة، في

(*) (موضوع رئيسي متكرر - المترجم).

(١) طبق مبدأ جيريمي بنتام البانوبتي في معامل أدارها شقيقه صمويل في ضياع بوتمكين، وهي أرض استعمرتها روسيا بعد هَزيمَة العثمانيين في ١٧٦٨ - ١٧٧٤. انظر

Mathew S. Anderson, 'Samuel Bentham in Russia', The American Slavic and East Ru-ropean Review 15 (1956): 157- 72.

(٢) فيما يتعلق بتكوّن هذه الطبقة المالكة للأرض، انظر:

F. Robert Hunter, Egypt Under the khedives, 1805-1874; from house hold Government to Modern Bureaucracy. pp. 109- 21.

(3) See D. Farhi, 'Nizam-i cedid: military reform in Egypt under Mehmed Ali', Asian and Africa Studies 8 (1972) 153.

المدن الرئيسية، والمؤلفةَ في معظم الحالات من مجرد ألف أو ألفي رجل وذات الولاءات الموزعة على فصائلَ سياسية متنافسة، لم تكن تسيطر على الشئون الحَضَرية إلا بصعوبة، أما سيطرتها على الريف فقد كانت أقلَّ بكثير[(١)]. وقد أصبح يتعين الآن الاستعاضة عن هذه القوات الصغيرة من الأجانب بقوة عسكرية ضخمة - تصل إلى مائتي ألف رجل أو أكثر حسب بعض المصادر - مجندة من قرى مصر ومدنها[(٢)]. وصدرت الأوامر بإنشاء الثُكنات ومعسكرات التدريب قرب المدن الرئيسية على مجمل طول النيل، من أسوان إلى القاهرة وعبر الدلتا، حيث الثُكنات «تسع كلُّ واحدة منها ألفي جندي وطالب وتكون كل ثُكنة منها بعيدةً عن البلد بربع ساعة»[(٣)]. وقد جرى تجنيدُ الرجال في الجيش ليس من أجل حَمَلات منفردة بل لسنوات عديدة ثم إلى مدى الحياة. وغالبًا ما كانت أُسَرهم ترافقهم حيثما ذهبوا، وتبني «ثُكناتها الطينية» في مواجهة أسوار المعسكرات[(٤)]. ويمكن القول: إن إخضاع البلاد للتنظيم الصارم الجديد قد بدأ مع هذا الحدث، مع النشر المفاجئ بين قُرى النيل لنوع جديد من المستوطنات، الثُكنات، وتجنيد المصريين العاديين لسكناها. والحال أن الخطة الرامية إلى تحويل الفلاحين إلى جنود باحتجازهم وتدريبهم في الثُكنات قد أدخلت نوعًا جديدًا من الممارسة العسكرية، فكرةً جديدةً عن ماهية الجيش وكيف يتسنى تكوينه.

وقد أُشيرَ إلى الأشكال الجديدة للممارسة باسم «النظام الجديد» وكان «النظام الجديد» هو الاسم العثماني لخطة جرى إدخالها قبل ذلك بوقت قصير في الإمبراطورية العثمانية، المهدَّدَة من جانب استعمار روسيا المتواصل لحدودها الشمالية، لإعادة تنظيم الجندية الإمبراطورية ونظام الضرائب الذي يدعمها[(٥)]. وقد أشار الاسم بشكل أكثرَ تحديدًا إلى الهدف الكامن في

---

(1) André Raymond, Grandes villes arabes à l'époque ottoman, pp. 69- 78; Crecelius, Roots of Modern Egypt, pp 15- 24

(2) Justin McCarthy, 'Nineeth - Century Egyptian Population', Middle Eastern studies 12 (October 1978): 37, n. 77;

وإذا ما أضيف الحرس الوطني لأوائل أربعينيات القرن التاسعَ عشرَ فيحتمل أن الجيش المصري كان أكبر بكثير.

Riviln, Agricultural Policy, p. 351, n. 28.

(٣) أمين سامي، التعليم في مصر في سنتي ١٩١٤ - ١٩١٥، وبيان تفصيلي لنشر التعليم الأوّلي والابتدائي بأنحاء الديار المصرية، ص٨.

(4) Judith E. Tucker, Women in Ninettenth- Century Century Egypt, pp. 135- 7

(5) See Stanford J. Shaw, Between old and New: The Ottoman Empire Under Selim III, 1789-1807 (Cambridge: Harvard University Press, 1971), pp. 86-179

صميم هذا الخطة: تدريب قوة مشاة جديدة وتنظيمها وَفقَ التقنيات الجديدة التي استحدثها البروسيون والفرنسيون. كما أن «النظام الجديد» كان الاسم الذي استخدمه الكُتّاب العثمانيون للإشارة إلى النظام النابوليوني في فرنسا(١). وبعد سقوط الإمبراطورية الفرنسية في عام ١٨١٥، شقّ ضباط الجيوش الفرنسية ومهندسوها المهزومون طريقَهم إلى مصر، حيث قُدِّر إنشاء النظام الجديد بمساعدتهم. وكانت مصرُ أولَ ولاية من ولايات الإمبراطورية العثمانية يحالفها التوفيق في إدخال النوع الجديد من الجيش(٢). فقد بُنيَت الثُكنات ومعسكرات التدريب، وفي أبريل ١٨٢٢ صدرت تنظيمات تُخضع كافةَ الثُكنات، والمدارس العسكرية ومعسكرات التدريب لمجموعة مبادئَ مشتركة في مجال الانضباط والتعليم(٣). والحال أن الاحتجاز في الثُكنات، والانضباط، والتعليم كانت كلها ابتداعات.

آلة مصطنعة:

أوضح كُرّاس عثماني رسمي أن الجيش الجديد «لا يجب أن يتألف، شأن بقية قواتنا، من الفطاطرية، والمراكبية، والسمّاكين، والقهوجية، والبقالين، ومن لف لفهم ممن يعملون في الحرف الاثنتين وثلاثين، بل من رجال جيدي الانضباط.»(٤) فلم يعد يجري النظر إلى الجيش بوصفه جهازاً ظرفيًا، يجري تجميعه لشن حملات موسمية. إذ كان يتعين أن يكون قوة منظمة، مؤلفة من رجال مرغمين على العيش معًا بصورة دائمة كجماعة متميزة، تتلقى التدريبَ بصورة

---

(1) Benard Lewis, The Emergence of Modern Turkey, 2nd ed. (London: Oxford University Press, 1968), p. 57.

(2) Rivlin, Agriculturl Policy, p. 251

وقد بدأ إدخال النظام الجديد في تونس بعد ذلك بعقد من الزمان: انظر

L. Carl Brown, The Tunisia of Ahmed Bey, 1837- 55 (Princeton: Princeton University Press, 1974), pp. 261-321

وفي المغرب، بدأ رجال يكتبون عن تجديد النظام في ثلاثينيات القرن التاسعَ عشرَ: انظر:

Abdallah Laroui, Les origins sociales et culturelles du nationalism marocain (1830-1912) (Paris: Maspero, 1977), pp. 272- 84

(٣) أمين سامي، التعليم، ص٨

(4) Mustafa Reshid Celebi Effendi, 'An explanation of, nizam-y-gedid', in William Wilkinson. An Account of the Pmicipalities of Wallachia and Moldavia Including Various Political Observations Relating to Them (London: Longman et al., 1820), appendix 5, p. 234. A baccal is a greengrocer.

مستمرة حتى في الوقت الذي لا تكون فيه في حرب. وفي هذه الممارسة الجديدة، فإن الجنود «يجب أن يمكثوا ليلاً ونهاراً في معسكراتهم، مؤدين كلَّ يوم تدريباتهم العسكرية، ومحافظين على أسلحتهم، ومدافعهم، وبنادقهم، ومختلف المعدات الحربية الضرورية للخدمة الفورية، ممارسين بذلك الانضباطَ اللائقَ بتسميتهم كجنود نظام جديد»(١).

والحال أن الانضباط من هذا النوع كان بدعةً جديدةً، لم تُعتَمد في معظم البلدان الأوروبية إلا قبل جيلٍ أو نحوِ ذلك من إدخال النظام الجديد، وذلك إثرَ الانتصارات البروسية المثيرة في حرب السنوات السبع (١٧٥٦ - ١٧٦٣) (٢). وكان البروسيون قد أدخلوا تقنيات ثوريةً، قوامُها التوقيتُ الدقيقُ، والإشعارُ السريعُ، والاتباعُ الصارمُ للانضباط، يمكن من خلالها صنع جيش بحيث يكون ما سَمَّته التعليماتُ العسكريةُ البروسية «آلةً مصطنعةً». والحال أن الجيوش الأخرى أخذت تبدو، بالمقارنة مع مثل هذا الجيش، كما لو كانت مجموعات من «الكُسالي والخاملين»، وهو تصور سوف يبدل الطريقة التي يجري النظر بها ليس فقط إلى جيش من الجيوش بل إلى أية جماعة بشرية، كما سوف يكتشف المصري العادي(٣). ومثل هذه «الآلة» يمكنها إطلاق النار بسرعة تزيد ثلاث مرات على سرعة الجيوش الأخرى، مما يجعلها قادرة على إحداث دمار يزيد ثلاث

---

(1) Mustafa Reshid, 'Nizam-y- gedid', pp. 236- 370.

(٢) قارن هذا مع تمرينات الفروسية المملوكية التي وصفها أيالون، حيث كان التدريب العسكري استعراضًا، لعبة تسلية عامة، وعلامة شرف فردي، يستعرض فيه الفارسي وينمي من خلاله مراسَه البدني، ورشاقته ومهارته في استخدام الفرس والرمح، وفروسيته:

David Ayalon, 'Notes on the furusiyya expercises and games in the Mamluk Sultanate', in The Mamluk Millitary Sociaty: Collected Studies, (London: Variorum Reprints, 1979), ch. 2.

ومع أن خبراء المدفعية الأوروبيين قد جرى استخدامهم في مصر في سبعينيات القرن الثامنَ عشرَ، إلا أنهم لم يؤثروا تأثيراً كبيراً علي تكتيكات الجيش، الذي واصل الاعتماد على اندفاع الفارس الفرد بوصفه الشكل المفضل للهجوم. انظر

Crecelius, Roots of Modern Egypt, pp. 77-8, 175.

(3) Military Instructions of the Late king of Prussia, etc., fifth English edition, 1818, p. 5, cited in J.F.C. Fuller, The Decisive Battles of the Western World and Their Influence Upon History, 3 vols. (London. Eyre & Spottiswoode, 1955), vol 2: From the Spanish Armada to the Battle of Waterloo, p. 196.

مرات على الدمار الذي يمكن للجيوش الأخرى إحداثه، كما يمكن نشرها، وإدارتها، وسحبها بسهولة ميكانيكية(١).

وقد اعتُمدت التنظيمات العسكرية البروسية في العقود التي تلت حربَ السنوات السبع من جانبِ جميع الجيوش الأوروبية الرئيسية، وأدخل الفرنسيون عليها تحسينات في تنظيمات عام ١٧٩١ الجديدة. وكانت التقنياتُ الجديدةُ للتدريب، والانضباطُ والقيادةُ هي أولَ شيء يعلق عليه أحد المصريين لدى وصفه للجنود الفرنسيين الذين غزَوا بلاده في عام ١٧٩٨، فقد كتب المؤرخ عبد الرحمن الجبرتي أن «لهم علامات وإشارات فيما بينهم يقفون عندها ولا يتعدون حدَّها»(٢). وقد أسهب الكُرَّاس العثماني في وصف السيطرة الدقيقة على الأصوات والإيماءات التي من شأن نظام الانضباط تحقيقها. «إن الجهاز كله، والذي يتألف من آلاف مؤلفة من الرجال، يلاحظ بانتباه الإشارات التي يوجهها إليه العريفان اللذان يوضحان أوامر الضباط عن طريق العلامات ولا يجرؤ أحد حتى على إدارة رأسه. وهكذا فبينما يجري إبلاغ أوامر الضباط دون أدنى ضوضاء، يقف الجنود ثابتين، وكلهم آذان صاغية، لا تصدر كلمة واحدة من أفواههم «فكل حركة وكل لحظة، كل صوت، ونظرة، وكلمة وزاوية للرأس ووضع للجسم، يمكن السيطرة عليها كلها. وهكذا «فلو أصدر الضابط المكلف بإصدار الأوامر، مثلاً، إشارة الانتباه، يتخذ الجهاز كله في الحال وضع الاستعداد، ولا يجرؤ واحد من الجنود على الوقوف مسترخيًا، أو على إثارة

---

(1) Fuller, Decisive Battles, 2: 192- 215

ومن ناحية أخرى، يصف ف.ج. باري هذا التغير في الممارسة الأوروبية، والذي كان النظام الجديد يحاول لاعتماده، بأنه ' ليس تحولاً جديداً بقدر ما أنه توسيع للممارسة المقبولة، بل و«التقليدية» '

by. La maniére de combattre', in War, Technology and Society in the Middle East, ed ' V.J. Parry and M.E. Yapp (London: Oxford University Press, 1975), p. 240

وصحيح أن التدريب قد جرى تنظيمه وممارسته ممارسة روتينية من جانب الجيوش الأوروبية لأكثر من ٢٠٠ عام منذ تجديدات موريس نوسو، إلا أنه لم تحدث تحولات متزامنة في التدريب، والإشارة، والقيادة تجسد الفكر الجديد عن ماهية الجيش وكيفية خلقه إلا في أواخر القرن الثامنَ عشرَ وقد أسفرت هذه التحولات عن زيادة الجيوش وسرعة مناورتها مرتين، ومعدل إطلاقها للنيران ثلاث مرات وحجمها الذي يمكن أن يدار أربع مرات.

(٢) عبد الرحمن الجبرتي، تاريخ مدة الفرنسيس بمصر، أشرف علي نشره، س. موريه ونشر مع ترجمة تحت عنوان:

Al- Jabarti's Chronicle of the First Seven Months of the French Occupation of Egypt Muharram- Rajab 1213 (15 june- dec 1798), p. 21.

أية ضوضاء، أو على الالتفات إلى جهة أخرى[1]». وهكذا فإن الضبط والتنسيق الدقيقَين للأفراد يتيحان بناء الآلة المصطنعة بهم.

والحال أن حرب القرنين السابعَ عشرَ والثامنَ عشرَ التي يُعوزها انضباطُ الحركة والتي كانت تُحشَد فيها أعداد متعاظمة باطراد من الرجال المتواجهين مواجَهةً مباشرةً، قد أصبحت تبدو مثلَ صدَام أحمقَ بين مجرد زحامَات[2]. وقد لاحظ الكُرَّاس العثماني أن جنود الجيوش القديمة «عندَما يكونون في مواجهَة العدو، لا يظلون مصطفين في صف، بل يقفون وقوفًا مرتبكًا ومشوشًا كزحام في ساحة لهو. فالبعض يَشحنون بنادقهم بالذخيرة، ويطلقون مرة، بينما يطلق البعض الآخر مرتين أو أكثر، كل حسب تقديره لما هو مناسب، في حين أن آخرين، وقد حاروا ولم يدروا ماذا يفعلون، يتحوَّلون من جانب إلى آخرَ كرواة الحكايات الخرافية». أما جنود الانضباط الجديد فإنهم، خلافًا لذلك، «يظلون مصطفين في صف كما لو كانوا يؤدون الصلاة، حيث تكون صفوفُ المؤخرة موازيةً تمامًا لصفوف المُقدِّمَة، وتتألف من عدد السرايا نفسه، بلا زيادة وبلا نقصان، بحيث تدور، عند الضرورة، بالدقة التي تدور بها الساعة»[3]. والحال أن الصفوف المتوازية والدقة الميكانيكية تقدم نفسَها كمفهوم جديد للنظام، ومثل هذا النظام ليس انسجامًا، أو توازنًا أو تطابقًا بين قوى العالم - نوعًا أقدم من النظام سوف أحاول استعادة طبيعته بشكل أدق فيما بعد - بل هو النظام نفسه، حالةٌ لا تُعرَف بلغة أخرى غير تنظيم ما هو بلا نظام، تنسيق ما هو غير متصل. ففي النظام الجديد، جرى تحويل ما هو غيرُ منظَم، وربط ما هو مُشتَّتَ، بحيث يُشكِّل وحدةً أو كُلاً تكون أجزاؤه في اتساق ميكانيكي وهندسي.

---

(1) Mustafa Reshid, "Nizam- Y- gedid", pp. 268-9.

نوقشت صياغة ومغزى هذه التقنيات في أوروبا القرنين الثامنَ عشرَ والتاسعَ عشرَ من جانب

Foucault, Discipline and Punish, pp. 136- 69.

(2) Fuller, Decisive Battles, 2: 192- 215; Foucault, Discipline and punish, pp. 162- 3.

(3) Mustafa Reshid, 'Nizam-y-gedid', p. 268.

وقد رأى المستشار العسكري البريطاني المرافق للقوات التركيبة التي حاربت الفرنسيين أن العثمانيين كانوا يتميزون بتسليح وبإمداد ممتازين، وأنهم كانوا يفتقرون فقط إلى النسق الجديد للانضباط. وقد كتب «إن لديهم رجالاً رائعين، وجيادًا ممتازة، ومدافع جيدة، ووفرة من الذخيرة والإمدادات والمؤن، وباختصار وفرة كبيرة من كل المواد اللازمة لتشكيل جيش قوي، لكنهم يفتقرون إلى النظام والانتظام»، الجنرال كيهلر المستشار العسكري البريطاني للجيش العثماني النظامي خلال الحملة المصرية، في برقية إلى لندن ٢٩ يناير ١٨٠٠، وزارة الخارجية ٧٨/ ٢٨ وردت في Shaw, Between Old and New, p (136).

وفي الجيش، أدّى هذا إلى إنتاج آلة يمكن «إدارتها بالدقة التي تدور بها الساعة». إذ يمكن جعلها تؤدي ما أخذ الضباط الفرنسيون في مصر يسمونه بـ«المناورات»، أي أن تدور، أو تطلق نيران الأسلحة، أو تنكمش، أو تنتشر حسب الأوامر. وقد جرى إيضاح أن ضباط النظام الجديد، يمكنهم «تنظيم قوة ضخمة من الرجال في شكل دائري، ثم دفعهم إلى الدوران بشكل يسمح للجنود، مع دوران الدائرة، بإطلاق رصاص بنادقهم بشكل متواصل على العدو وعدم السماح بأي توقف مؤقت للقتال، وإطلاق النيران، بعد إعداد بنادقهم لإطلاق آخرَ للنيران، لحظةَ وصولهم إلى مواجهة العدو، وتتمثل نتيجة هذا التشكيل الدائري في أن النّار والقتل لا يتوقفان للحظة واحدة». وفي مثل هذه الآلة، فإن كل فرد يحتل موقعًا، حيِّزًا، يخلقه (كما هو الحال مع مسمار دولاب) تماثل الفاصل بين كل فرد. والفاصل أو الحيز هو ما أصبح الرجال يسيطرون عليه، مُضيِّقين له أو مُوسِّعين له حسب الأوامر، «وأحيانًا، عند اعتبار ذلك ضروريًا، فإن عدة آلاف من الرجال المزدحمين في حيِّز ضيق، يشكِّلون كتلةً مصمتةً وذلك بهدف أن يظهروا في نظر العدو كما لو كانوا قليلين في العدد، ثم يمكنهم، عن طريق الانتشار، تنفيذ أية مناورة يشاءون، وأحيانًا، فإن عشرة آلاف رجل منتشرين، يظهرون كما لو كانوا خمسين ألفًا أو ستين ألفًا»(١). والحال أن النظام كان إطارًا من الصفوف والمسافات، المخلوقة من الرجال، والتي يمكن فيها توزيعُ الرجال وتحريكُهم في مناورات واحتجازُهم.

ومع النظام الجديد، أخيرًا، توافرت الوسيلة الفعَّالة للسيطرة على الفرار، وكسر العقبة التقنية الرئيسية أمام ترويض مجموعات بشرية ضخمة وإداراتها. فقد جرى احتجاز الجنود، حين لا يكونون في حرب، في المعسكرات أو الثُكنات، حيث جرت حراستهم، وتدريبهم و«إخضاعهم لأقصى درجات الانضباط»(٢). كما تعين فصلهم عن الجماعة المدنية، وذلك عن طريق احتجازهم وعن طريق ارتداء زي عسكري موحَّد. وقد جرى إيضاح أن «جنود قواتنا القديمة، لا يرتدون زيًا موحدًا بالمرة، ومن هذا التباين في الملبس، ينتج الأثر السيء التالي: فلو حدث، في زمن الحرب، أن فرَّ أي واحد منهم من الجيش، فسوف تُتَاح له الفرصة للهرب دون أن يعرفه أحد، إذ لا توجد علامات يمكن لنا عن طريقها أن نميز ما إذا كان الفارُّون ينتمون إلى الجيش، أو ما إذا كانوا حرْفيين أم خدمًا. وذلك في حين أن الجنود الجدد

(1) Mustafa Reshid 'Nizam-y-gedid', p. 269; cf. Foucault, Discipline and Punish, p. 163.

(2) Mustafa Reshid, 'Nizam-y-gedid', p. 242,

لهم زي موحد خاص، بحيث يمكن اكتشاف الفَارِّين على الفور، ومن هنا ينتج أن كل رجل في معسكر ضخم للقوات الجديدة، سوف يكون مرغمًا على الثبات في سريّته، وعلى الاستمرار في أداء واجبه»[١].

مجمل مُسطَّح المجتمع:

إلى جانب الثُكنات ومعسكرات التدريب، اشتمل النظام العسكري الجديد على أكثرَ من دزينة من المدارس لتدريب كوادرَ عسكرية متخصصة تشمل ضباط سلاح الفرسان وسلاح المدفعية وسلاح المشاة والسلاح البحريّ، ورجال سلاح الإشارة، والأطباء، والأطباء البيطريين، والفرق الموسيقية العسكرية، والمهندسين[٢]. وكان على المدارس استخدام المناهج الانضباطية نفسها، القائمة على «احتجاز الطلاب» و «نظام مراقبة وإلزام»[٣]. وقد أدار معظمها مهندسون وعلماء عسكريون فرنسيون ومصريون، كان كثيرٌ منهم قد تلقَّوا العلم والتدريب في المدرسة الهندسية في باريس، وكان من بينهم أتباع عديدون لـ «سان سيمون» ولسكرتيره أوجوست كومت.

وفي أواسط ثلاثينيات القرن التاسع عشر كان هؤلاء الرجال مسئولين عن رسم سياسة تدريب عسكري أكثرَ شمولاً. وقد دعَت الخطط الجديدة إلى تحسين مران القوات وتدريبها (فبراير ١٨٣٥)، وبعد ذلك بعام، دَعَت إلى إعادة تنظيم مدارس التدريب العسكري. وقد دعت الخطة الأخيرة إلى منظومة من خمسين مدرسة أولية للتجنيد العسكري، يتم إنشاء أربعٍ منها في القاهرة ويتم إنشاء بقيتها في البنادر. وقد أرست قواعدَ موحدةً تحكم الانضباط، واللياقة البدنية، والمقرر الدراسي، والامتحانات، والزي المدرسي، والجرايات، وهيئة التدريس، والإدارة، والتفتيش. وكان يتعين إخضاع الطلاب للرقابة المستمرة، ليس في الفصول فقط، وإنما أيضًا خلال مشيهم ابتغاءَ النزهة خارج المدرسة، وخلال الاستجمام، وفي عنابر النوم. «لقد كان الانضباط عسكريًا بصورة صارمة وكانت العقوباتُ درجات تبعًا

(1) ibid, pp. 166-7

(٢) أحمد عزت عبد الكريم، تاريخ التعليم في عصر محمد علي (القاهرة ١٩٣٨)، ص ٨٢- ٩٣؛
James Heyworth- Dunne, An Introduction to the History of Education in Modern Egypt, pp. 115- 80.

(3) A.B. Clot Bey. Mémoires, ed. Jacques Tager (Cairo: Institut Français d'Archéologie Orientale, 1949), p. 325.

للجرم وكان بالإمكان توبيخُ طالب في حضور المدرسة كلها، أو احتجازُه في المدرسة، أو حبسُه وتزويدُه بالخبز والماء فقط، أو ضربُه بالكرباج أو فصلُه من المدرسة»(١).

كما دعت الخطة إلى إنشاء مدرستين إعداديتين، واحدة في القاهرة تَسَعُ ١٥٠٠ طالبًا والأخرى في الإسكندرية، وكانت المدرستان «مؤسستين عسكريتين من حيث الجوهر؛ فقد جرى تسكين الطلاب في ثُكنات شأنهم في ذلك شأن الجنود؛ وقد شكلوا ثلاثَ كتائبَ في مدرسة القاهرة، تتألف كلُّ كتيبة منها من أربع سرايا في كل سرية منها مائةٌ وخمسةٌ وعشرون طالبًا؛ وقد اختير ضباطُ الصف والعرفاء من بين الطلاب، وقاد المُدرِّسون المساعدون السرايا، بينما قاد رؤساءُ الشعب الكتائبَ». وكان يتعين رصدُ سلوك الطلاب رصدًا مستمرًا وتنظيمه عن طريق هرمية دقيقة مَن الأحكام الانضباطية. «لقد كانت العقوبات من اثنتي عشرةَ درجة مختلفة، تتراوح بين التوبيخ العلني والفصل من المدرسة، وكان من الممكن أن يفقد أحدُ الطلاب رتبتَه إن كان ضابطَ صف أو عريفًا أو حجبُ الترقية عنه من باب العقاب»(٢).

لقد أدخل النظامُ الجديدُ أسلوبًا جديدًا للسلطة، التي أخذت تمارس عملَها عن طريق الاحتجاز الجسماني للجماعات، والرصد المتواصل للسلوك، والسيطرة على الحركات والإيماءات، والإنشاء الدقيق للهرميات. وكما بدأت الفصول المدرسية الجديدة بالإشارة بالفعل، فإن هذا النظام قد قُدِّر له أن يمتد إلى ما وراء الثُكنات وساحة القتال بكثير. وقد كتب جون بورنِج، صديق جيرمي بنتَام وكاتب سيرته الذي عمل مستشارًا لمحمد علي وأعدَّ تقريرًا عن مصرَ للحكومة البرِيطانيةَ، أن «إدخال التنظيم الغربي في جيوش المشرق قد جرَّ إلى نتائجَ هامة أخرى، لأن تطبيقات الفن الميكانيكي، والتعليم، والمعرفة، والنسق العام للاتباع والخضوع، كانت الأمورَ الضروريةَ المرافقةَ للمجريات الجديدة. إذ إن تحويل السلطة العسكرية من حشود سائبة وغير منضبطة إلى جهاز من الجنود المدربين تدريبًا منتظمًا من خلال مختلف مراحل الطاعة والانضباط، كان في حد ذاته إنشاءَ مبدأ للنظام شمل مجمل مسطَّح المجتمع»(٣). وفي الثُكنات، وفي معسكرات التدريب والمدارس وفي المعارك، سَمَح مبدأُ النظام هذا بـ«تثبيت» الرجال في أماكنهم، وإبقائهم «مستمرين في أداء واجبهم»، وتنسيقهم

(1) Heyworth- Dunne, Education in Modern Egypt, pp. 185- 195. The kurbaj is a leaher whipe.

(2) ibid, p. 197

(3) John Bowring, 'Report on Egypt and Candia', p. 49.

بوصفهم الأجزاءَ المنفصلةَ لآلة عسكرية واحدة، وفي القرى وحقول القطن، فإن تطبيق المبدأ نفسه «على مجمل مسطّح المجتمع» قد جعل من الممكن فجأة احتجاز السكان في مساقط رؤوسهم (وكما قيل إن الحكومة قد زعمت) تعليم الناس سبلَ اجتهاد أرقى بكثير من سبل اجتهادهم»[1].

مُراقبون ليلاً ونهاراً:

من أجل تثبيت الريفيين في أماكنهم وحَفْزهم إلى البدء في إنتاج القطن وغيره من السلع للاستهلاك الأوروبي، كان من الضروري رسم حدود أماكنهم بدقة ووضوح وتحديد واجباتهم أو الحصص المطلوبة منهم تحديداً دقيقًا، ورصد أدائهم وتقديم التقارير عنه بصفة مستمرة. والحال أن السجل اليومي أو الجورنال (استعيرت الكلمة من أوروبا)، كان هو الممارسة الإدارية التي بدأ بها إخضاع مصر الريفية لنظامٍ صارمٍ في منتصف عشرينيات القرن التاسعَ عشرَ، عندما أنشأت الحكومةُ مكاتبَ التفتيشِ الإقليمية والمركزية، لتلقّي تقارير مفتشيها المحليين (الجورنالجية)[2]. وقد جرى تفصيل «النسق العام للاتباع والخضوع» تفصيلاً أتمَّ في كتيِّب من ستين صفحة صدر في ديسمبر ١٨٢٩، تحت عنوان «لائحة زراعة الفلاح وتدبير أحكام السياسة بقصد النجاح»، والذي وصف بالتفصيل كيف يجب على الفلاحين العمل في الحقول، والمحاصيل التي يتعين عليهم زراعتها، واحتجازهم في القرية، وواجبات أولئك المكلَّفين بحراستهم ومراقبتهم. وكان الكتيِّب محصلة اجتماع لأربعمائة من المديرين الإقليميين وضباط الجيش وموظفي الحكومة، دُعي إلى الانعقاد في القاهرة في عام ١٨٢٩ لمواجهة مشكلة انخفاض الإيرادات وتزايد الفرار من الأرض[3]. وقد تضمن في النهاية خمسًا وخمسين فقرة تنص في تفصيل متدرِّج على عقوبات لأكثرَ من سبعين تخلفًا منفصلاً عن أداء الواجب من جانب الفلاحين أو مراقبيهم[4].

---

(١) على نحو ما أورده القنصل العام البريطاني، الكولونيل باتريك كامبل، وزارة الخارجية ٧٨/ ٨٦. ٤، نقلاً عن Rivlin, Agricultural Policy, p. 211

(2) Deny, Sommaire des archives turques du Cairo, pp. 150- 3

(3) Rivlin, Agricultural policy, pp. 89, 102- 3

(٤) أعيد نشر هذه الفقرات بعد شهر من صدور اللائحة، تحت عنوان «قانون الفلاحة».
Hiroshi Kato, "Egyptian village community under Muhammad Ali's rule: an annotation of Qaaun al- filaaha', Orient 16 (1980): 183.

وكما تقرر في اللائحة، فقد كان يتعين رصدُ الفلاحين في أداء مهامهم، بأن يعملوا في الحقول تحت مراقبة المشد والغفير، «وكان هؤلاء الموظفون يراجعون الفلاحين كل يوم، ويراقبونهم ليلاً ونهاراً لمنعهم من هجر القرية». وكان يجري الإبلاغ عن أي فلاح يتخلف عن أداء مهمته إلى شيخ البلدَ، ورئيس القرية المعيَّن من الحكومة. «وإذا اكتشف شيخ البلد أن فلاحًا قد تخلف عن زراعة حقوله كما هو مطلوب، فإنه كان يعاقبه بجلده خمسًا وعشرين جلدة بالكرباج، وبعد ذلك بثلاثة أيام، يفتش شيخُ البلد حقولَ الفلاح مرة أخرى وإذا تبين أن الفلاح لم يُنجز بعدُ الزراعةَ الضروريةَ، فقد كان مصرَّحًا لشيخ البلد بأن يجلده خمسين جلدة، وبعد ثلاثة أيام أخرى يجري تفتيش آخر يتلقى بعده الفلاح المهمل مائة جلدة». وكان رئيس القرية تحت إشراف مسئول عن الناحية، وهو حاكم الخط، فإن كان مهملاً في مراقبة الفلاحين، تعرض للتوبيخ في المرّة الأولي، وعُوقب بمائتي جلدة في المرة الثانية، وبثلاثمائة جلدة في المرة الثالثة، أما الحاكم نفسه فكان تحت إشراف مسئول إقليمي هو المأمور، وكانت عقوبة إهماله هي لفت النظر في المرة الأولي ثم الضرب بالعصا خمسين مرة في المرة الثانية. وكان المأمور مسئولاً أمام مسئول المديرية، وهو المدير الذي كان يتعين عليه تقديم تقرير أسبوعي إلى مكتب التفتيش المركزي. وقد جرى إنشاء تدرُّج مماثل للواجبات والمراقبة والانضباط بالنسبة لتوزيع المحاصيل، وجباية الضرائب، وتقديم الرجال للخدمة العسكرية والسخرة، والإبلاغ عن أي شخص يوجد خارج زمام قريته دون إذن ودون وثائق تحديد للشخصية والتحقيق معه واعتقاله(١).

وليست قسوة العقاب أو تكراريته هي ما يجعل هذا مختلفًا عن أي شيء سابق له. والواقع أن الأحكام قد قُصد بها إزالة سوء استخدام السلطة القاسي، أما التغيُّر فهو يكمن في الصياغة الدقيقة للمهمةَ، وللمراقبة، وللعقوبة. فقد جرى النصُّ على كل فعل منفصل ومراقبته، لتنسيق كل فرد في اقتصاد واحد للمحاصيل، والمال، والرجال. وكان ذلك محاولةً لتحقيق نظام الثكنات وساحة القتالِ الجديد، بهرميته المؤلفة من الإشارة والحركة والمراقبة منقوشةً ومفروضةً في حياة القرية والفلاح.

وليست هناك حاجة إلى أن نروي بالتفصيل نواحي فشل هذه الممارسات أو الدمار الذي تسببت فيه(٢). ولقد نشبت طوال الفترة انتفاضاتٌ سياسيةٌ في الأقاليم، قمعتها قوات

(1) Rivlin, Agricultural policy, pp. 78, 89- 98

(2) ibid, pp. 105- 36, 200-12

الحكومة الجديدة بصورة منهجية، وفرّت أعدادٌ ضخمة من الفلاحين من قراهم ولاذوا بالهرب. ولم تكن مثل هذه الانتفاضات شيئًا جديدًا، وما كان جديدًا هو قدرة الجنود على قمعها، لأن مناهج الضبط والربط، كما ذكر بورنج، كانت قد جعلت الجنود «حماة، بدلاً من مدمرين للملكية؛ فهم يشكلون جزءًا من بنية تحسن اجتماعي...»[1]. إلا أنه في ثلاثينيات القرن التاسعَ عشرَ، بدت بنيةُ التحسن هذه نفسُها لبعض الخبراء الأوروبيين على أنها تتعرض للضعف من داخلها. وقد ذكر بورنج في تقرير إلى الحكومة البريطانية: «إن أحد أسباب تردي قوة جيش الباشا هو انتشار الشوق أو الحنين الجارف إلى البلد، وهو مرض غامض ولا علاج له على حد سواء. وقد ذكر لي طبيب في خدمة الباشا أن عدد الأشخاص الذين أصابهم الهزال حتى الموت، إذ غرقوا تحت تأثير هذا المرض الذي لا علاج له، كان كبيرًا للغاية... وقد قال لي أحد الأطباء إنني لا أستطيع الإبقاء على حياتهم عندما يبدأون في التفكير في البلد. وقبل وقت طويل من موتهم يغرقون في فراغ فاتر، غير عابئ»[2].

وفي أربعينيات القرن التاسعَ عشرَ، بعد أن أوقف التدخل البريطاني تحول مصر إلى قوة عسكرية إقليمية وأدى إلى اختزال جيشها إلى ١٨٠٠٠ رجل، كانت الحكومة لا تزال تستخدم قواتها في الداخل لجمع الفلاحين غير المتواجدين في مساقط رؤوسهم وإعادتهم بالقوة إلى قراهم الأصلية[3]. وفي أبريل ١٨٤٤، أصدر أحد وزراء الحكومة إشعارًا إلى موظفي النواحي، جاء فيه: «إن الفلاحة والزراعة هما عماد راحة السكان المصريين وسعادتهم ورفاهيتهم، ووصولاً إلى ذلك، فمن الضروري بصورة مطلقة أن يعود كل أولئك الذين تغيبوا عن مساقط رؤوسهم إلى قراهم الأصلية». وكان يتعين إبلاغ الجمهور العام بالإشعار وقد انتهى إلى الأمر - مثلما حدث كثيرًا في السابق - بالإعدام شنقًا لكل من يؤوي الفلاحين

---

(1) Bowring, 'Report on Egypt and Candia', p. 49; Afaf lutfi Al- Sayyid Marsot Muhammad Ali, pp. 132-26;

وفيما يتعلق بالطبيعة السياسية لمثل هذا التمرد، انظر

Fred Lawson, 'Rural revolt and provincial society in Egypt, 1820,- 24', International Journal of Middle East Studies 13 (1981): 131-53.

(2) Bowring, 'Repot on Egypt and Candia', pp. 5-6

(3) Tucker, Women in Nineteenth- Century Egypt, p. 135;

وفيما يتعلق بالتدخل البريطاني وأثره على تصنيع مصر الوليد، والمستند إلى احتياجات الجيش، انظر

Marsot, Muhammad Ali, pp. 232- 57

الفـارِّين من قراهـم «وذلك للقـضـاء على كـلمة فـارّ مرة وإلى الأبد». وكـتـحـذير للآخـرين، وصف ما حدث لسليمان بدر الدين، من منية السيرج، الذي كان يؤوي الفارِّين والذي «شُنِقَ في سوق ذلك المكان»(١)(*).

ورغم مثل هذه الأمثلة، فقد واصل الفلاحون الهرب من أراضيهم، أما أولئك الذين كانوا يُرسَلون إلى الخدمة العسكرية فقد كانوا «يُشَرِّكون» أنفسهم لتجنب التجنيد. وقد اشتكى والي مصر في تعميم إلى موظفي النواحي التابعين له صدر في مارس ١٨٣٣: «إن بعضهم يخلعون أسنانهم، وبعضهم يُعمُون أنفسهم، وبعضهم يَبتُرون أطرافهم، وهم في الطريق إلينا، ولهذا السبب فإننا نعيد الجزء الأعظم منهم... وسوف آخذ من أسرة كل مذنب من أمثال هؤلاء المذنبين رجالاً بدلاً منه، أما من بتر أطرافه فسوف يجري إرساله إلى العمل على السفن الشراعية مدى الحياة، وقد أصدرتُ بالفعل أمرًا كتابيًا بهذا إلى شيوخ البلاد»(٢)(*). وتظهر نواحي ضعف النظام العسكري من القسوة المتزايدة لمناهجه في التجنيد، والتي أخذت تَبَزُّ مناهجَ أوروبا في وحشيتها(٣).

والواقع أن طبيعة المشكلة تنبثق من تناقض هذه النصوص نفسه، فهناك نزاع بين التغلغل الذي لم يسبق له مثيل للمناهج الجديدة للسلطة والحاجة إلى جعلها مقبولةً أكثرَ، وغيرَ ملحوظة أكثرَ، وفعالةً أكثرَ ضد أمراض «الحنين إلى البلد»، ومن ثمَّ أكثرَ كفاءةً. فمن ناحية، كان الجزء الأعظم من الفلاحين على استعداد لبتر أطرافهم أو لـ «تشريك» أنفسهم، وذلك للإفلات من التجنيد، وقد فَشلَت عمليات الإعدام شنقًا على رؤوس الأشهاد واستخدامات العنف الأخرى في ردع جماعَات سكانية بأكملها عن هجر قراها والهرب. وكان التنظيم الصارم لـ«القوى المنتجة» للبلاد قد جعل الزراعة والعمل الإجباري واجبًا يكاد يكون مماثلاً للتجنيد في الجيش من حيث ثقل وطأته. وكان الملاذ الوحيد لأُسَر الفلاحين هو هجر بيوتها

(١) ترجمة أصلية من سجلات وزارة الخارجية البريطانية وزارة الخارجية ٧٨/ ٥٠٢، ٢٤ مايو ١٨٤٤، في Rivlin, Agricultural policy, appendix 3, p. 271.

(*) أعدنا ترجمة الاستشهاد عن الإنجليزية لتعذر العثور علي الأصل «المترجم».

(٢) ترجمة أصلية من سجلات وزارة الخارجية البريطانية، وزارة الخارجية ٧٨/ ٢٣١، ١٦ مارس ١٨٣٣، وردت في Rivlin, Agricultural policy, 276-77

(*) أعدنا ترجمة الاستشهاد عن الإنجليزية لتعذر العثور علي الأصل «المترجم».

(٣) فيما يتعلق بالمقارنة مع المناهج الأوروبية المعاصر انظر Marsot, Muhammad Ali, p. 129.

و«الفرار». ومن الناحية الأخرى، كانت الدولة قد بدأت بالفعل البحث عن لغة جديدة، «للقضاء على كلمة فارّ مرة وإلى الأبد». وتعلن، على أوسع نطاق ممكن «إن الفلاحة والزراعة هما عماد راحة السكان المصريين وسعادتهم ورفاهيتهم». وبالشكل نفسه، كان محمد علي قد كتب في عام ١٨٣٦ إلى المفتش العام للمصانع العسكرية، ردًا على الأنباء التي ذكرت أن العمال يجري حبسهم هناك ويحرمون من أجورهم، منبهًا إلى أن المصري العادي (الفلاح) يجب أن يُعامَل معاملة لائقة، لضمان دخل الحكومة، «فَلْتَهتَمُّوا براحته، ولْتَزيدُوا أجرَه، حتى ينكبَّ على عمله وهو راضٍ كلَّ الرضا»(١)(*). لقد كان على المناهج الجَديدة للسلطة أن تسعى إلى العمل من خلال لغةٍ وعملية التحسين ذاتهما.

وبعد الفشل في ثلاثينيات القرن التاسعَ عشرَ، عندما بُذلَت مرة أخرى محاولة للتغلغل في عمليات الإنتاج والسيطرة عليها في أربعينيات القرن التاسعَ عشرَ، جرى استخدام منهج جديد. وكان المنهجُ هذه المرة هو وضع مجموعات من القرى تحت وصاية موظفين أفراد، بدءًا بأفراد الأسرة الحاكمة، وتجار أوروبيين، وكان يتعين تنظيم القرى كضياع شخصية، تَستخدم عينَ نظام الاحتجاز المكانيٍ، والانضباط والمراقبة(٢). ويمكن اعتبارَ هذه الضيَاع منشأً نظامَ الملكية الخاصة للأرض في مصر الحديثة، سوف يعتمد عليه الإنتاج لأجل السوق الأوروبية(٣). وقد صار من الممكن، على الضيَاع الخاصة، أن تَظهرَ السلطةُ وتتحصنَ، من حيث كونُها عمليةَ نظام وانضباط موضعية، لفائدة طبقة جديدة من ملاك الأرض المقيمين في الحَضَر إلى حد بعيد والمصالح التجارية الملكة للأرض. وكما هو الحال مع الجيش الجديد، فإن عملية النظام هذه سوف تظهر ليس بوصفها ترتيبًا اعتباطيًا، بل بوصفها النظامَ نفسَه، أما الطبيعة الخاصة لمثل هذا النظام فيمكن زيادتها توضيحًا بفحص ما سوف يصبح سمةً مشتركةً للضيَاع الجديدة: «القرية النموذجية».

---

(١) نقلاً عن:

Moustafa Fahmy, La révolution de l'industrie en Egypt et ses conséquences sociales au 19e siècle (1800- 1950) (Leiden: E.J. Brill, 1954), p. 19

(*) أعدنا ترجمة الاستشهاد عن الإنجليزية لتعذر العثور على الأصل «المترجم».

(2) Rivlin, Agricultural policy, pp. 65- 70; Marsot, Muhammad Ali, pp. 157- 60, 250-51

(٣) يتتبع كينيث كونو أصل هذا النظام ومقدماته في:

"The origins of private ownership of land in Egypt: a reappraisal', International Journal of Midle Eastern Studies 12 (1980): 245- 75.

الإسكان النموذجي:

كانت قرية كفر الزيات في دلتا النيل ضَيْعَةً موضوعةً تحت سيطرة إبراهيم بن محمد علي (الرجل الذي ذكرنا في الفصل الأول لقاءه المحزن مع هيكل حوت في برمنجهام). وقد صدرت التعليمات في عام ١٨٤٦ إلى سكانها بإعداد قائمة بأُسَر القرية، ومواشيها، «والصنائع» المختلفة التي تشتغل بها. وطبقًا لهذه القائمة، أُعيد بعد ذلك بناءُ القرية، تحت إشراف مهندسين فرنسيين مكلفين بما سُمِّي بـ«إعادة بناء قرى مَصر»، وقد جرى نقل السكان إلى بيوت جديدة، حيث خُصِّصَت لكل أسرة غرفٌ تتناسب مع حجمها ومرتبتها الاجتماعية (عادية، أو ميسورة، أو ثرية، أو أجنبية). وقد تألف «البيت النموذجي» لأسرة عادية، حسب وصف أحد المهندسين الفرنسيين:

١- من فناء ارتفاع أرضيته ١٠ , ٠م فوق مستوى الشارع، وطوله ٨م وعرضه ٤ . ٣٤م ومن ثم يمكنه أن يؤويه، في الليل، ثلاثة حيوانات كبيرة وثلاثة حيوانات صغيرة على الأقل.

٢- من غرفة بالدور الأرضي، ارتفاع أرضيتها ١٠ , ٠م فوق مستوى الفناء ومن ثم ٢٠ , ٠م فوق مستوى الشارع، وطولها ٤ . ٣٥م وعرضها ٣ . ٧٠م، مضاءة بنافذتين: واحدة مرتفعة، ذات قضبان، تُطلُّ على الشارع، والأخرى منخفضة تُطلُّ على الفناء، وتشتمل على ديوان واسع بما يكفي لاحتواء سريرين فرديين.

٣- من غرفة في الطابق الأول، ذات شرفة مسقوفة صغيرة تُطلُّ على الفناء[1].

وقد استُخدِمَت الخطط نفسها لإعادة بناء العديد من القرى المصرية الأخرى، بما في ذلك قرية النجيلة، الَتي تبعد عن كفر الزيات مسافة أحد عشر ميلاً إلى الجنوب، وقرية الجزاير في مديرية المنوفية. وفي قرية النجيلة، فإن «كتلة الأكواخ البائسة التي كانت متراكمةً في السابق دون خطة» قد أزيلت تمامًا، وحلَّت محلها قرية جديدة، وجد رحالة إنجليزي أنها «جِدُّ منظمة، وذات شوارع يخترق أحدها الآخر عند زوايا مناسبة»[2].

والحال أن مشاريع التحسين من هذا النوع تتضمن قدرًا أقلَّ من قسوة مناهج النظام العسكري الذي وصفته. لكن النظام الذي يسعى إلى تحقيقه نظام مماثل، فمثل هذه المشاريع

(1) D'Arnaud, 'Reconstruction des villages de l'Egypt', p. 280;

انظر أيضًا علي مبارك، الخطط الجديدة لمصر القاهرة ومدنها وبلادها القديمة والشهيرة ١٥ : ٧

(2) (St John, Village life, 1: 104).

تجسد، بدرجة لا تقل عن تجسيد التجديدات العسكرية، الأسلوبَ الجديدَ الذي كان يتعين تصور طبيعة النظام نفسها به. وفي مصر الحديثة، كما في أية دولة حديثة، كان على النظام من هذا النوع أن يزعم أنه النظام نفسه، النظام الواقعي الوحيد الموجود.

وجوهر هذا النوع من النظام هو إنتاج «وقع» سوف أسمِّيه بالتأطير. فالتأطير منهج للتبويب والاحتواء، كما في بناء الثُكنات وإعادة بناء القرى، يعمل عن طريق استحضار صورة ذهنية لمسطَّح أو كتلة محايدة اسمها «المساحة». (وليس من قبيل المصادفات أن بدايات هذا المنهج في مصر الريفية تتزامن مع أصول الملكية الخاصة للأرض، والتي أصبحت المساحة فيها سلعة) وعند إعادة بناء القرية، فإن تباعد المساحات الذي يشكل غرفها، وأفنيتها، ومبانيها يجري تحديده بمقاديرَ دقيقة، حتى أقرب سنتيمتر، وبدلاً من أن يكون التقاءً عرضيًا للجدران، والأسقف، والفتحات، فإن نسق المقادير هذا يمكن تصوُّره بصورة منفصلة، بوصفه المساحةَ نفسَها، فالخطط والأبعاد تدخل المساحة بوصفها شيئًا مجردًا ومحايدًا من الناحية الظاهرية، بوصفها سلسلةً من الأطُر أو الحاويات السلبية[1].

وضمن هذه الحاويات، يمكن عندئذ عزلُ المفردات، وعدُّها، وتسكينُها: ثلاثة حيوانات صغيرة في كل فناء؛ سريران فرديان (ومن ثم شخصان) في كل غرفة؛ بل إن الأوضاع المكانية للقُدور، والأزيرَة والإمدادات الغذائية قد جرى تحديدها في الخطط الفرنسية. كما أن تبويب مثل هذه المفردات هو تبويب للحياة في سلسلة من الوظائف المتميزة - النوم، الأكل، الطهو وهلمَّ جرًا - لكل منها مكان محدد. وكان يتعين تحقيق نظام القرية التي أعيد بناؤها عن طريق اختزال حياتها إلى هذا النسق من الأمكنة والموضوعات والوظائف المحتواة هناك، إلى هذا النسق الذي يتألف من إطار وما هو مؤطَّر والحال أن الحيادية الظاهرية للمساحة، بوصفها بُعدَ النظام، هي وقع للبناء والتوزيع حسب التمايز الدقيق بين الحاوي والمحتوَى.

وقد جرى تمثيل نسق الحاويات تمثيلاً سهلاً في الخطط. وحسب علمي فإن خطط إعادة بناء القرى المصرية لم يُكتَب لها البقاء. لكن رجال الإدارة الفرنسيين قد وضعوا في الفترة نفسها خططًا مماثلة لإعادة بناء القرى في الجزائر. وفي الحالة الجزائرية، كانت إعادةُ بناء القرى

(١) فيما يتعلق بالمكان بوصفه نسقًا للأحجام، «حيادية النظام» انظر:

Lewis Mumford, Technics and Civilization, pp. 20- 326. The term 'enfarming' is borrowed from Martin Heidegger, The Question Concerning Technology, pp. 20-1.

مرتبطةً على نحو مباشر أكثرَ بتحقيق السيطرة العسكرية. وقد جرى تدمير قرى أعداد ضخمة من الجزائريين ونَقلهم إلى مستوطنات جديدة، وذلك من أجل تفريغ مناطقَ من السكان كان من الصعب فرض السيطرة الاستعمارية عليها ولإخضاع السكان لمراقبة مباشرة أكثر(١).

ومع وضع مثل هذه الخطط، يمكن تصور تحقيق النظام بشكل خاص: بوصفه العلاقةَ بين القرية والخطط. ويمكن تحقيقه وفقًا لذلك، مع استنساخ تماشي القرية مع الخطة في قرية بعد أخرى، بحيث يؤدي ذلك إلى ظهور ريف منظم مؤلف من حاويات ومحتويات.

وقد أتاح منهج نظام كهذا إمكانية توحيد قياسي ملحوظ، بين البيوت، وبين الأسَر وبين القرى. وكما في الجيش، سوف تكون هذه الوحدة علامة مميزة للنظام الجديد. إلا أنه كما هو الحال مع ابتداع نسق للرُّتَب العسكرية، فإن المناهج الجديدة للنظام المكاني قد عملت أيضًا عن طريق إنتاج هرمية مرئية وتقنينها. فقد كان يتعين إيجاد تمايز، كما ذكرنا، بين أربعِ مراتبَ مختلفة من السكن. ففضلاً عن البيت النموذجي للفلاح العادي، كانت هناك مساكن للميسورِين، وللأغنياء، وللأجانب. والحال أن توزيع الأسَر وفقًا لهذه الفئات الأربع سوف يولد، أو سوف يثبت ويؤكد على الأقل، هذه التمايزات فيما بينها، بحيث يميل، في آن واحد، إلى تثبيت هرمية اجتماعية محددة وتوضيحها. وعلى أية حال، فإن إعادة البناء قد جعلت القرية نفسها شيئًا واضحًا، من زاوية قوائم الأُسَر، والصنائع والماشية التي جرى إعدادها، وعندئذ يمكن تبويب هذه المعلومات في إحصائيات تكشف عن «القوى المنتجة» للبلد، في ذات الوَقت الذي يجري فيه نقشها في عمارة قراها الجديدة غير الملتبسة.

وهذا الوضوح، الذي هو علامة العالم بوصفه مَعرضًا كانت له أهمية أعظم. فقد كان الخبراء الأوروبيون تَوّاقين إلى تنظيم إنتاج معارفَ إحصائية من هذا النوع فيما يتعلق بمصر (مثلما كان الهدف من المَعارض العالمية، كما رأينا في الفصل السابق، هو إنتاج الوضوح الإحصائي نفسه للعالم)، وذلك عن طريق جمع معلومات عن «سكانها، ومنتجاتها.. وبوجه عام عن كل الأمور التي لها طابع إحصائي، ولها أثر، مباشر أو غير مباشر، على إنماء

(1) See Pierre Bourdieu and Abdelmalk Sayed, Le déracinement: La crise de l'agriculture traditionnelle en Algérie (paris, Editions de Minuit, 1964)

وللاطلاع على مناقشة إضافية لـ«انضباط المكان»

Michael Gilsenan, Recognizing Islam: Religion and Society in the Modern Arab World.

مواردها»[١]. وكان إنتاج المعلومات الإحصائية قد بدأ بالفعل مع نشر «وصف مصر» الذي أشرنا إليه في الفصل السابق، وهو العمل الذي أعده العلماء الفرنسيون الذين كانوا قد رافقوا احتلال نابوليون العسكري لمصر. وقد اشتملت أجزاء الوصف التي تناولت الحالة الحديثة على حساب دقيق للمقادير، لأمور إحصائية كـ«متوسط قوة الرجال المصريين»؛ فمثل هذه القُوى، على أية حال، هي ما كانت مناهج النظام الجديدة تسعى إلى التغلغل فيه واستعماره والمحافظة على نظامه وزيادته[٢]. على أن الإنتاج الميكانيكي لهذه المعارف قد عرقلته صعوبات التغلغل والمحافظة الاستعمارية على النظام؛ إذ لم يكن معدومًا وحسب، كما سوف يجد المهندسون، «أي جهاز لجمع الحقائق وتصنيفها»، بل إن العمارة الخاصة للقرية المصرية وأسلوب حياتها قد جعلا مثل هذه «الحقائق» المتعلقة بالسكان وبقوتهم الإنتاجية عصيةَ المنال بوجه خاص. وكما أوضح بورنِج للحكومة البريطانية، فإن صعوبات القيام بأي شيء كإعداد تقدير صحيح للسكان تزيد منها كثيراً حالةُ القوانين والأعراف المُحمَّدية، التي تستبعد نصف المجتمع من مراقبة البوليس. فلكل بيت حريمه، وكل حريم يستحيل الوصول إليه[٣]. والحال أن النظام الواضح للقرية النموذجية سوف يتغلب على هذا النوع من استحالة المنال، هذه المشكلة المتعلقة بسكان وبأسلوب حياة خفيٍّ على «مراقبة البوليس». وكما كتب فُوكُوه، فإن عمارة التوزيع وفن الإخضاع للبولِيس يمكنهما، بمثل هذه السبل، اكتساب سيطرة على الأفراد ليس عن طريق مجرد احتجازهم وإنما عن طريق كشف وإبراز ما هو محتجب، وغير معروف وصعب المنال.

على أن هذا النوع الجديد من النظام، كما يشير فُوكُوه أيضًا، لم يكن في ذاته شيئًا ثابتًا أو جامدًا. فبوصفه منهجًا للاحتواء، تكمن قوته في مرونته، ويوضح التقرير الفرنسي عن القرية النموذجية «أن نسق البناء منظم بحيث يمكن أن تسكن البيوتَ أسرةٌ من أي عدد من الأفراد (من البشر والحيوانات على حد سواء).» وكان هذا ممكنًا لأن نسق التقسيم قد جعل الغرف

---

(1) Bowring, 'Report on Egypt and Candia', p. 3

(2) P.S. Girard, "Mémoire sur l'agriculture, l'industrie, et le commerce de l'Egypte', Description de L'Egypte, état modern, 2 vols. (Paris, 1809- 22), vol. 1, part 1, p., 688, cited Charles issawi, ed. The Economic History of the Middle East 1800- 1914 : A Book of Readings (Chicago: Univesity of Chicago Press, 1966), p. 376

(3) Bowring, 'Report on Egypt and Candia', pp. 3-4

حجيرات فردية، يمكن التأليف بينها على أي نحو. أما الأسَر الأكبر فكان يتعين احتواؤها عن طريق مجّرد «فتح مدخل في أحد الجدران الفاصلة»، وهو ما يمكن عمله «دون إخلال بالانسجام بين الغرف أو المباني». وهكذا يمكن توسيع شبكة الحاويات المؤلفة من حجيرات، وتضييقها، وجعلها تتواصل دون أن تفقد أبدًا طابعَ تأليفِ نسقٍ، تأليفِ كلٍّ يتوافر «الانسجامُ» بين أجزائه المنفصلة.

والحال أن هذا الانسجام للأجزاء قد أتاح للقرية التي أُعيد بناؤها أن توفر ليس مجرد معرفة أفضلَ بسكانها وسيطرة أفضلَ عليهم، بل إمكانية التنَسيق فيما بينهم من أجل زيادة إنتاجيتِهم كوحدة. وشأنها فيَ ذلك شأن الجيش، يمكن تصور القرية الجديدة بوصفها آلة، تُولِّد الجهدَ من تفاعل أجزائها الفردية. «إن أسلوب البناء سوف يسهل الاجتهاد كثيرًا وسوف يصبح بالإضافة إلى ذلك عظيمَ النفع للمعاملات في المستقبل بين السكان»(١). وقد بدا أن مناهج إعادة البناء هذه تشير إلى أن الجهد والإنتاجية والتفاعل قوًى فرديةٌ يمكن الآن، شأنها في ذلك شأن القرية نفسها، » قياسها، وإعادة تجميعها، وزيادتها، والسيطرة عليها.

●●●

(1) D'Arnaud, 'Recibstruction des villages', p. 279

كائنات حضارية

سوف أستكشف في الفصل التالي بمزيد من التفصيل الارتباطَ بين تقنيات التأطير وإمكانية تنسيق وزيادة الجهد الفردي، حيث سأفحص توازيات بين إعادة بناء القاهرة وإدخال التعليم المدرسي المدني المنظم. إلا أنه لزيادة توضيح ما كان جديداً في عملية التأطير، قد يكون من المفيد في هذه المرحلة قول شيء أولاً عن أنواع السكن وأساليب العيش التي حاولت إعادة بناء المدن والقرى استبدالها، والبدء في الوقت نفسه بربط مسألة التأطير، كتقنية للنظام، بمسألة المعنى أو التمثيل. وأنا أقترح عمل ذلك بأن أناقش، فيما تبقى من هذا الفصل، سمات معينةً لمدن الشرق الأوسط (أو بالأحرى، مدن جنوب البحر المتوسط) قبل الحديثة، وذلك عن طريق الجمع بين هذا وبعض الأمثلة الأحدث المستمدة من وصف بيير بورديو لسكن قرويي القبائل، وهم جماعة ناطقة بالبربرية في الجزائر[١]. والحال أن لديَّ تحفظين تجاه ما سوف يلي. فأولاً: بما أن غرض مثل هذه الأمثلة هو توضيح افتراضاتنا الخاصة عن طبيعة النظام عن طريق مقارنتها بنوع من النظام تعتبر افتراضاته مختلفة، فإنني أجازف بعرض هذا النظام بوصفه عينَ نقيض أنفسنا، وعلاوة على ذلك، فإن مثل هذا النقيض سوف يظهر لا محالة بوصفه كليةً تحتوي ذاتها، وسوف تظهر مواجهته مع الغرب الحديث، لا محالة أيضًا، بوصفها تمثل تَمَزُّقَه وانهيارَه. والحال أن هذه الأنواع من الكليات قبل الرأسمالية، التي تحتوى ذاتها، تكتسب العيب المريع الذي يتمثل، كما لاحظ مايكل توسيج، في اضطرارها إلى إشباع حنيننا إلى عصر براءة مفقود[٢]. ومثل هذه النتائج، على الرغم أنها من المحتمل أن تكون حتمية، فهي نتائج غير مرغوب فيها وليست مقصودة.

---

(١) مع أن بحث بورديو «البيت القبائلي أو العالم مقلوبًا»، يعد تفسيرًا بنيويًا، إلا أن بحثه التالي «عرض لنظرية عن الممارسة» يقدم ما يمكن تسميته بقراءة بعد بنيوية للمادة نفسها. وللاطلاع على محاولة لوصف حياة القرية قبل الكولونيالية في مصر، انظر

Jacques Berque, Histoire sociale d'un village égyptien au XXe siècle (Paris: Mouton, 1957), and Egypt: Imperialism and Revolution, pp 48- 59- 65- 9

(2) Michael T. Taussig, The Devil and Commodity Fetishism in south America (Chapel Hill: University of North Carolina Press, 1980), p. 7

وثانيـا: فـإن مـحـاولتي وصفَ نوع البناء الذي حلّت القرى والمدن الكولونيالية محلّه، تتضمن صعوبة خاصة: وصف أسلوب سكن لم يختزل النظام إلى مسألة علاقة بين الأشياء وخطتها، بين العالم وخريطته، ومع ذلك فسوف يتعين عليّ البدء بخطة.

يمكن وصف البيت بإيجاز على النحو التالي، فهو مثلث من حيث الشكل، ويسمح باب من ضلفتين بالدخول من الفناء. أما في الداخل فيوجد سور منخفض، يقسم داخل البيت إلى جزءين. أما الجزء الأول، الأوسع بدرجة طفيفة من الجزء الآخر، والأكثر ارتفاعًا بدرجة طفيفة، فهو مخصص للاستخدام البشري، ويحتل المستوقد ركنه الداخلي، بينما يستند نول النسيج إلى الحائط الجانبي المواجه للمدخل، مصدر ضوء النهار، أما الحائط الجانبي الآخر، والذي يجري تثبيت الباب فيه، فهو يُسمَّى حائطَ الظلام. أما الجزء الأصغر، الأدنى، من البيت، والذي تحتله الحيوانات، فتعلوه سقيفة يجري تخزين الأدوات وعلف الماشية فيها، وعادة ما تنام النساء والأطفال فيها، خاصة في الشتاء.

والحال أن التصميم الخاص للبيت، بهذا الوصف، يمكن إعطاؤه ما سوف نسمّيه نحن والمهندسون الفرنسيون تفسيراً وظيفياً، لكن بورديو يشير إلى أن التمايزات بين مختلف أجزاء البيت والأماكن المختلفة التي يجري فيها حفظ الأشياء أو القيام بالأنشطة، تتطابق مع سلسلة من الترابطات والتعارضات، لا يجوز استبعادها بوصفها «رمزية لا أكثر» مثلما يمكن أن يحدث لها في تفسير وظيفي.

إن الجزء الأدنى المظلم، الليلي من البيت، مكان الموضوعات الرطبة، أو الخضراء أو النيئة - القلل المصفوفة على مناضد على أيٍّ من جانبي مدخل الزريبة أو في مواجهة حائط الظلام، والحطب والعلف الأخضر - ومكان الكائنات الطبيعية أيضًا - الثيران والأبقار، والحمير والبغال، والأنشطة الطبيعية - النوم، والجنس، والولادة، وكذلك الموت، يتعارض مع الجزء الأعلى، المغمور بالضوء، الرفيع المنزلة: هذا هو مكان البشر وخاصة الضيف ومكان النار والموضوعات المصنوعة من النار، كالمصباح، وأوعية المطبخ، والبندقية - خاصة مناط الشرق المذكر (نيف) التي تحمي شرف الأنثى (حرمة) - ومكان النول، رمز كل حماية(١).

ويوضح بورديو أن البيت منظم وفقًا لمجموعة من التقابلات المتناظرة، بين النار والماء، المطبوخ والنيئ، المرتفع والمنخفض، الضوء والظل، النهار والليل، الذكر والأنثي، النيف

(1) Bourdieu, Outline, p. 90; 'kabyle house', pp. 135-6

والحرمة، المخصب والقادر على أن يكون موضوعًا للإخصاب، لكن القول بأن «البيت منظم» بهذا الشكل قول مضلل وذلك لنوعين من الأسباب. فأولاً: ليس البيت بذلك المعنى مساحةً محايدةً تنظم فيها مفردات أو أشخاص. فالمساحة نفسها مستقطبة وفقًا للتقابلات التي يصفها بورديو، والتقابلات القطبية تغلف كل نشاط للبيت، بما في ذلك أسلوب بناء البيت نفسه. وعلاوة على ذلك، فإن البيت بالنظر إليه في علاقته ببقية القرية، يصبح مجرد قطب واحد، «الأنثى»، في عالم أوسع: «فالتقابلات نفسها تقوم بين البيت ككل وبقية الكون، أي العالم المذكر، مكان الاجتماع، والحقول، والسوق»[1]. وليست التقابلات أبوابًا ثابتةً يجري تنظيم المفردات والمساحات فيها، فهي ليست وقع إحداثيات مكانية بل هي وقع قوى قطبية. وثانيًا - وكما سوف نرى - فإن مثل هذه القوى القطبية لا تُحدثُ نفسها كبنية تقابلات بل كحركة حرة غير مستقرة للاختلافات. فالذكر، أو الضوء أو الجافَ ليس أيٌّ منهم غيرَ عملية استبعاد أو إرجاء للأنثى، أو للمظلم أو للرطب، وبمعنى ما إذًا، فإن الذكر يشمل الأنثى، والضوء يشمل المظلم، والجاف يشمل الرطب، والعكس بالعكس، لأن كل طرف لا يقع إلا بوصفه الاختفاء أو التأجيل غير المؤكد لما يختلف عنه. والاختلاف، كما سوف يقول لنا ديريدا ليس نمطًا لتمايزات أو لفواصلَ بين الأشياء، بل هو على الدوام إرجاء أو اختلاف غير مستقر داخل الأشياء ذاتها.

والحال أن النظام الملحوظ الناشئ عن فعل قوى الاختلاف هذه لا يجب أن يُضَلِّلَنا ويدفعَنا إلى تفسيره بوصفه مجردَ «نظام مختلف» عن النوع الذي ارتآه المهندسون الفرنسيون؛ ناهيك عن دفعنا إلى تفسير هذا الاختلاف من زاوية المعتقدات الأسطورية لسكانه الأفارقة الشماليين بالمقارنة مع التفكير العقلاني، المتحرر من السحر، عند الأوروبي؛ أو حتى من زاوية المعتقدات أو الأنماط الحضارية التي تُعتَبر ببساطة، مرة أخرى، مختلفةً عن الأنماط الحضارية للأوروبي الحديث. فمثل هذه التفسيرات تواصل كلها تفسيرَ النظام من زاوية بنية أو نمط أو خطة ذهنية يجري تصورها بوصفها قائمةً بشكل منفصل عن «الأشياء نفسها».

وخلافًا للنظام الذي ارتآه المهندسون الفرنسيون (وبُناةُ المَعارض العالمية)، فإن تنظيم البيت الأفريقي الشمالي ليس معنيًا بعلاقة بين الأشياء ونمط أو خطَة. وعن طريق استخدام المثال الجزائري وإدخال بعض الشواهد التاريخية إلى جانب ذلك، سوف أحاول تشخيص

(1) Bourdieu, Outline, pp. 90-1

هذا النوع من النظام من عدد من النواحي. فأولاً: سوف أبيِّن أنه ليس معنيًا بالنظام من حيث هو إطار، تأتي خطوطه إلى الوجود بمكان محايد يجري تنظيم الأشياء من زاويته. وثانيًا: فإن مثل هذا التنظيم لا يعمل عن طريق تحديد حدٍّ ثابت بين عالمٍ داخلي وخارجه. وهو، ثالثًا: ليس معنيًا بنظام مقام من زاوية ذات منفصلة. تواجه العالمَ بوصفه موضوعَها، كما أنه، أخيرًا، ليس معنيًا بالمعنى كمشكلة بالنسبة لهذه الذات الفردية، قوامها تثبيت العلاقة بين العالم وخطته أو تمثيله أو بالأحرى، ولكي نضع التأكيد بصورة مختلفة للحظة، فإن ما يمكن لنا نحن سكانَ العالم بوصفه مَعرضًا أن نسلِّم به بشكل عادي باعتباره عناصرَ أي نظام - الإطار، الداخل، الذات، الموضوع، والمعنى غير الملتبس أو الحقيقة - يظل مشكلاً وفاعلاً في تنظيم عالم القبائل. وفي إعادة قراءتي لوصف بورديو للبيت القبائلي أود أن أشير إلى مدى افتتان عالمنا المَعرضيّ بمعتقدات معينة عن البنية، والذاتية والحقيقة.

أولاً وقبل كل شيء، بدلاً من التفكير في البيت القبائلي من زاوية بنية، فقد يكون من المفيد البدء بالتفكير فيه من زاوية موازنة أو اعتناء. ففي عالم القبائل، كل ما - الظلام وضوء الشمس، النار والماء، الرجال والنساء، الحيوانات والبذور، دعامات الأسقف والأعمدة - يظهر لا كمجرد موضوع، كما يمكن لنا القول بل يظهر بدرجة لا تقل معقولية بوصفه قوةً أو قوةً كامنةً معينةً، وحياة البيت هي اعتناءٌ بأفعال هذه القوى المتباينة، اعتناءٌ باستعدادها للإثمار أو للعقم.

فالحبوب، إذا ما اكتفينا بمثال واحد فقط، ليست شيئًا للاستهلاك، بل امتلاء ممكن (للحقول أو للمعدة) تحدد علاقاتُه الضروريةُ والمتناقضةُ مع الماء والنار كيفيةَ التعاملِ معه. ويقال لنا إن الحبوب المخصصة للاستهلاك تُحفَظ في جرار خَزَفيَّة ضخمة في مواجهة الحائط الأخير للجزء العلوي من البيت، قرب المستوقد، في حين أن الحَبوب المخَصصة للبذر تُخزَّن في الجزء المظلم من البيت، «في قرَب من جلود الأغنام أو صناديقَ خشبية موضوعة أسفلَ حائط الظلام، وأحيانًا تحت سرير الزوجية؛ أو بدلاً من ذلك، في صناديقَ موضوعةً تحت المنضدة في مواجهة السور الفاصل، حيث تأتي المرأة، التي تنام عادة عند مستوى أدنى، عند مدخل الزريبة، للنوم مع زوجها». وهكذا، ففي حين أن الحبوب التي يجب أن تغذي الأسرة المعيشية وتكفل هناءها ترتبط بالنار التي سوف تحولها إلى خبز، فإن الحبوب المخصصة للبذر، والتي يجب أن تنتفخ في التربة لكي توفر غذاء العام التالي، ترتبط

بالرطوبة وبالمياه التي يعتمد عليها مثل هذا الانتفاخ، وترتبط أيضًا بالمرأة، وعلي سبيل التناظر، بانتفاخ بطن المرأة الحبلى»[1].

والحال أن نظام البيت القبائلي، أو ما سوف نسميه بتنظيم مساحته (ليس أيًا من هذين المصطلحين كافيًا أو مناسبًا) يمكن تصوره على نحو أفضلَ بوصفه هذا النوع من الانتباه إلى خصوبة العالم أو امتلائه الممكن. والحال أن مثل هذه الإمكانية أو القوة تلعب دور إيقاع الحياة، وهي حياة ليست مؤلفةً من موضوعات خاملة يتعين تنظيمها بل من مطالبَ يتعين الاعتناء بها واحترامها، وفقًا للسبل المتناقضة التي يمس بها ويؤثر أحدُها على الآخر، أو يعمل في انسجام وتعارض، أو يماثل ويعارض أحدُها الآخر. وتصور حياة البيت من هذه الزاوية، والتي لا علاقةَ كبيرةً لها بالسحر أو بالأسطورة بالمعنى الانتقاصي الذي تمثله مثل هذه الكلمات، يمكننا من أن نبدأ في رؤية حدود تقنية نظام المهندسين الفرنسيين الاستفزازية، والميثولوجيا السياسية التي تفرزها.

●●●

(1) Bourdieu, 'kabyle house', p. 138; Outline, p. 116

عمار البيت

في المقام الأول، إذًا، لا يوجـد، بشكل مـحدد، في البيت الأفريقي الشـمـالي، شيء منفصل كإطار، فنظامه لا يتحقق عن طريق خلق وقع بنية جامدة تحتوي وتنظم محتويات، بل إن سقفه وجوانبه لا تشكل مثل هذا الإطار. وإذا جاز التعبير فإن أعـمدة البيت وجدرانه ودعاماته، تحمل كلُّها شحنتَها الخاصةَ. وكلها لا توجد إلا بممارسة قوة متواصلة أو بالمحافظة على توازن معين يُدرجُها في أنماط التشابه والاختلاف نفسيهما. (عند مركز السور الفاصل، بين «بيت البشـر» و «بيت الحيـوانات» ينتـصب العـمـود الرئيـسي الذي يسند «الدعـامـة الرئيسية». . (وهذه الدعامة) التي تربط بين طرفي الجملون وتمد حماية الجزء المذكر من البيت إلى الجزء المؤنث، تتوحد بشكل واضح مع سيد البيت، في حين أن العمود الرئيسي، وهو ساق شجرة متفرع. . . والذي تستند إليه، يتوحد مع الزوجة، ويقال لنا إن تَعَشُّق الدعامة والعمود «يرمزان إلى الاتحاد الجنسي»[1]. وكلمة رمز هنا لا تشير إلا إلى تمثيل مفهومي، لكن الارتباط ليس مفهوميًا. وبما أن بناء بيت يحدث دائمًا عندما يتزوج ابنٌ، فإن تَعَشُّقَ أجزائه هو إعادة تأكيد وتكرار مباشر للاتحاد الذي يشكل الأسرة المعيشية الجديدة. فالاتحاد الجنسي وتركيب البيت يرجع كلٌّ منهما صدى الآخر ويماثل كل منهما الآخر. وليس أيٌّ منهما مجردَ رمز للآخر. وسوف أعود بعد قليل إلى مسألة التمثيل والتماثل هذه.

بهذا الشكل وبأشكال مماثلة، تندرج أجزاء البيت في حياة الأسرة المعيشية. فالموجود هو هذه الحياة، في دوراتها؛ دورات الميلاد، والنمو والموت. والبيت عـملية ممسوكة في هذه الحياة وهذا الموت، وليس إطارًا يتظاهر بالانفصال. وبوسع تواز بسيط أن يوضح هذا من داخل البيت، في شكل النول. فنحن نميل إلى تصور النول بالطريقة التي نتصور بها البيت كإطار، يجري ضمن إطاره تشكيل موضوع، هو المنسوج، وإضفاء شكل عليه. لكن النول في شمال أفريقيا - فيما يقال لنا - لا يجري تصوره بوصفه مجردَ إطار بهذا المعنى. إذ لا يجري تركيب أجزائه إلا في عملية النسيج، وليس له اسم واحد إلا بوصفه جانبًا من جوانبَ عمليةِ النسج. ويجري تصور الأجزاء المتراكبة في عملية النسج بوصفها ذكرًا وأنثى،

(1) Bourdieu, 'Kabyle house', p. 139

والمنسوج الذي تشكله هو «حياة» يجري الاعتناء بها وتنميتها، بشكل يحاكي نمو البيت[1]. وإذا عدنا إلى البيت، يمكن للمرء القول بالشكل نفسه أنه ليس هناك مجرد بيت، بل سكن نشيط، يتولد من خلال تكوين أسرة معيشية ويجري دعمه كجانب من جوانب حيويتها، وليس كإطار محايد أبدًا. فالسكن ليس موضوعًا أو حاويًا بل عملية مشحونة، جزء لا ينفصل من حياة تنمو، وتزدهر، وتضمحل وتولد من جديد.

وفي اللغتين البربرية والعربية كلمات عديدة لهذه الحياة، في معنى ما يبني وما يزدهر، وإشارة إلى جانب من الأهمية الأكبر لهذه المناقشة للبيوت، سوف أذكر بإيجاز استخدام مصطلح من مثل هذه المصطلحات، مأخوذ من مصدر تاريخي شهير نسبيًا، هو مؤلَّف ابن خلدون، الذي عاش في أفريقيا الشمالية في القرن الرابع عشر. فمؤلَّف ابن خلدون الرئيسي، «المُقَدِّمَة»، هو دراسة مستفيضة للعُمران، وهي كلمة عادة ما تُتَرجم في هذا السياق بـ«الحضارة» أو «الثقافة». ويدرس الكتابُ الأحوالَ السياسيةَ والتاريخيةَ التي يظهر في ظلها العُمران، ويزدهر ويضمحل. ويناقش ابن خلدون مثل هذه الأحوال السياسية ليس من زاوية إطار مجرد ما، كـ«الدولة» بل من زاوية ظهور البيئة المبنية واضمحلالها. إذ تجري دراسة الحياة السياسية بوصفها بناء المدن واضمحلالها. وكلمة يبني، في هذا السياق، هي «عَمر» وهي كلمة يمكن أن تعني بالنسبة لابن خلدون: يحيا، يفلح، يزدهر، يمتلئ، يفعم بالحياة، يسكن، يرفع، ينصلح، يبني، ويعيد البناء. ومن هذه الكلمة ينتج مصطلح العُمران، حاملاً ضروبَ المعنى نفسَها: النشاط، الحياة النشطة، الامتلاء (كامتلاء سوق مفعم بالسلع، أو ميناء لا تكف السفن والتجار عن زيارته)، الازدهار، البناء[2]. ودراسة ابن خلدون للعُمران هي دراسة للأحوال التي يمكنها أن تحقق هذا البناء، هذا الإعمار، الذي نترجمه ترجمةً غيرَ مناسبة بالثقافة. فالبناء عملية نشطة، غير مقررة، تتميز بدورات وفرة واضمحلال، وليس مجرد تحقيق مادي لـ«خطة» مقررة سلفًا.

ولا يتضمن البناء أو العُمران، في أي مكان من «المُقَدِّمَة» فكرة «الخطة». ومن ثم فإن كلمة العُمران عند ابن خلدون لا تعني البتة الثقافةَ بالمعاني الحديثة لهذا المصطلح، والتي لا تنفصل

(1) Brinkley Messick, 'Subordinate disacourse: women, weaving and gender relations in North Affica', American Ethnologist 14/2 (1987): 20-35

(2) Cf. Mushin Mahdi, Ibn khaldun's Philosophy of History (Chicago: University of Chiacgo Press, 1957; phoenix ed., 1964), pp. 184- 7.

عن فكرة الخطة. فالمصطلح الحديث ينشأ معناه في تناقض مع «كيان مادي» سلبي للمدينة، وذلك بتحديد كيان مثالي مؤلَّف من المعاني المشتركة أو الأنماط الاجتماعية. والحال أن معنى مصطلح ابن خلدون، أيًا كانت معانيه التقنية، يظل متأصلاً في عملية نمو وامتلاء. وهو لا يستمد قوته من أي تمايز بين كيان مادي في مقابل معني، بين المدينة في مقابل خطتها(١).

ودون الإشارة إلى ابن خلدون، وفي سياق القرية البربرية المختلف إلى حد ما، يسترعي بورديو الانتباهَ إلى فكرة امتلاء مماثلة للغاية. ففي السكن الذي درسه، تَتَّبِعُ الممارساتِ المطلوبةَ من الفلاح نمط تفريغ وملء. ويجري عمل مقارنات، كما رأينا بين عمار الحقول، وامتلاء المعدة وامتلاء المرأة الحبلى. وبوجه عام، فإن عمليات الحياة الاجتماعية والزراعية تسعى إلى «عمار البيت» (لعماره أوخام)، حيث تتطابق كلمة العمارة البربرية مع المصطلحين العربيين عَمَار وعُمران(٢).

وتستوعب فكرة النمو والامتلاء الدوريين عمليات العالم دون تقسيمه إلى مجال مادي ومجال مفهومي، وترتبط بمفهوم كامل للتاريخ وللسياسة في كتابات ابن خلدون. وتقع المناقشة المناسبة لأفكاره خارج مجال هذا الكتاب، إلا أنه بهذه الأنواع من المصطلحات يُمكن للمرء تناول مسألة النظام في مدن الشرق الأوسط أو جنوب البحر المتوسط قبل الكولونيالية. وقد مالت المناقشات المتعلقة بما يُسمَّى بالمدينة الإسلامية إلى عدم الاعتراف بشيء من خصوصية مناهج النظام والمعنى التي تميز المدن منذ العصر الصناعي والتسليم أحيانًا. بدلاً من ذلك، بالإشارة إلى الطبيعة «العضوية» للمدن قبل الحديثة ثم دراسة مشكلة «نظامها» المترتبة عليها. إلاّ أنه لم تكن هناك مشكلة نظام، بالمعنى السائد عندنا لإطار أو خطة، في مثل هذه

(١) طبيعي أن هذا لا يعني إنكار أنه كانت هناك بناءات منتظمة، منظمة بعناية في المدن العربية فيما قبل القرن التاسعَ عشرَ (غالبًا ما كانت تبنى بوصفها قلب العواصم الملكية حديثة الإنشاء)- مثلما يمكن فهم البيت القبائلي على أنه بناء منظم بعناية. لكن المسألة ليست مسألة انتظام المبنى في المدن الحديثة، وهو في حد ذاته ليس شيئًا جديدًا، بل التمايز الجديد بين الكيان المادي للمدينة وبنيتها غير المادية. ويجدر الانتباه إلى ملاحظة الجاحظ بشأن مجمع القصر الدائري (والذي يشار إليه إشارة مضللة على أنه «المدينة المستديرة») والذي بناه الخليفة المنصور في عام ٧٦٢: «أنه يبدو كما لو كان قد صب في سبيكة وقالب». وهكذا يجري تلمس انتظام البناء بالإشارة إلى عملية الإنشاء، وليس من زاوية أي تمايز بين الكيان المادي للمدينة و«بنيتها» نقلاً عن
Lassner, 'The Caliph's personal domain: The city plan of Beghsas re-xamined', in Albert. J Hourani and S. M. Stern eds., The Islamic city, p. 103.

(2) Bourdieu. 'kabyle house', p. 145, Outline, pp. 111, 126

المدن، مثلما لم تكن عند ابن خلدون كلمة تُسمَّى مثل هذا الشيء. وكانت هناك، بدلاً من ذلك، دورة امتلاء وخواء، دورة حياة متواصلة تشمل الموت (في حين أن النظام لا يمكنه أن يشمل البتة عدمَ النظام)، دورة بناء وإعادة بناء متواصلين وسط قوى الاضمحلال.

وهكذا فإن ما آل إليه ذلك هو أسلوب بناء وحياة يرفض أن يحل نفسه إلى مَظهَر إطار وما هو مؤطَّر. ولم تَخلُق مدنُ الشرق الأوسط قط وقعَ تمايز بين «الكيان المادي» للبناء وغيرِه من الممارسات و «الكيان المثالي» لبنيتها ومعناها التمثيلي. فلم تكن المدينة تُبنَى بوصفها سلسلةً من البُنَى الواقعة في مكان، وكانت المباعدة المكانية هي البناء، وكانت مثل هذه المباعدة المكانية، في المدينة كما في القرية على حدٍّ سواء، مستَقطَبة دائمًا.

وفي حالة القاهرة قبل الحديثة، مثلاً، فإن البناء كان يتضمن عادةً فتحَ سياجٍ، كفناء محاط بالغرف أو الأعمدة، المستَقطَبة في حالات كثيرة حسب قبلَةِ مكة. ولم يكن هذا هو الحال فيما يتعلق بالمساجد وحدها، بل وفيما يتعلق بالسكن العاديّ أيضًا، على الأقل إلى ما بعد الفتح العثماني. والواقع أنه قد جرى تبيان أنه، بالنسبة للقاهرة، فإن وجهةَ المبنى، ووجهةَ العبادة، ووجهةَ استقبال الضيوف، قبلَة مكة، وطريق الشمس، وقوى دائرة البروج وخصائص الرياح السائدة كانت كلها متلازمَة بشكل محدد(١). ومع البيوت الأوسع، فإن المكان الداخلي المصوغ على شكل فناء وغرف كان متحداً على وجه التحديد بمثل هذه الاتجاهات والقوى «القطبية» بدلاً من أن يَتَّحد بالشارع أو بالمباني المجاورة(٢). وهكذا، فإن البيتَ، أو السكنَ المشتركَ في حالة المساكن الأفقر، كان يمتد حول هذا السياج، بأي شكل وحجم يسمح به وجود مبان مجاورة. ونادرًا ما كان خارجه الخُلُوُّ من التعبير وغير المنتظم عمومًا يتطابق مع شكل، أو يمثل غرض داخله الموجه بعناية. وبهذا المعنى لم يكن هناك خارج، ولم تكن المدينة قط إطار شوارع تتخذ البُنى مكانًا لها فيها. فكما سوف نرى، كانت الشوارع نفسُها سياجاتٍ، وكانت المدينةُ مباعدة فواصلَ مكانيةً أو سياجاتٍ تأخذ شكل كيان

(1) S.D. Goitein, A Mediterranean Society: The Jewish Communities of the Arab World as Portrayed in the Documents of the Cairo Geniza, 4 vols. (Berkeley: University of California Press, 1967- 85), 4: 64- 74; David king, 'Architecture and astronomy: the ventilators of Cairo and their secrets', Journal of the American Oriental Society 104 (1984): 97- 133

(2) King, 'Architecture and astronomy'.

مادي متجانس. وكان نظامُها مسألةَ محافظة، ضمن مثل هذه السياجات، على العلاقات المناسبة بين الاتجاهات، والقوى والحركات، لا قدرتها على أن تكشف في شكل مادي عن الوجود المقرر لخطة غير مادية أو معنى. لقد كان نظامًا دون أطر.

الخـارج:

يتمثل أسلوب ثان، متصل، لتشخيص النوع الحديث من النظام والذي أسميته بالتأطير في أنه يعمل عن طريق إقرار تمايز ثابت بين الخارج والداخل - إذ يبدو أن هناك خطأ غيرَ ملتبس على طوله يؤطِّر الخارج الداخل - والحال أن مدن القرن التاسعَ عشرَ الكولونيالية والأوروبية الجديدة قد جعلت الفاصلَ الثابتَ بين الداخل البورجوازي والخارج العام أوضحَ مبدأ لها. ومنذ ذلك الحين لم توجد صعوبة في اكتشاف انقسام مماثل في مدن الشرق الأوسط التقليدية؛ مماثل لكنه في الواقع أكثر صرامة، بين عالم المرأة والأسرة الداخلي وعالم الذكور، العام، عالم السوق والمسجد.

وللوهلة الأولى يبدو أن القرية القبائلية تجسد هذا الانقسام الأساسي. فمن المؤكد أن جدران كل بيت تفصل ما بين داخل وخارج، حيث يتطابق الأول مع عالم أنثوي والآخر مع عالم مذكر. إلا أننا إذا نظرنا إلى البيت عن قرب أكثر، أو، بالأحرى، إذا وضعنا أنفسنا داخله (لأن منهج البناء لا يسمح بمكان يقف فيه مُراقب خارجي)، فإن هذا الانقسام الثابت يبدأ في الانقلاب والانهيار. فأولاً: كما رأينا، يتألَف الداخل الأنثوي نفسه من جزء علوي «مذكر» وجزء تحتي «مؤنث»، لكن هذا فيما يقول لنا بورديو، لا يكون في الواقع إلا ليلاً، وخاصة في الشتاء حين ينام الرجال داخل الغرف. أما في الصيف، عندما ينامون في الخارج، في الفناء، فإن البيت برمته يشكل داخلاً «أنثويًا». إلا أنه خلال النهار، يتحول الفناء مؤقتًا إلى مكان للنساء عن طريق استبعاد الرجال الذين يقتصرون على المدخل، أو مكان الاجتماع، أو الحقول. (ولا يمكن القول إن النساء يقتصرن على الداخل إلا بمعنى اقتصار الرجال أيضًا على الحقول، مثلاً). وهكذا فإن تقسيم المكان المذكر والمكان المؤنث، الخارج والداخل، يتباين حسب الوقت، والفصل، والعمل الذي يتعين القيام به، وقوى ومطالب أخرى. ومثل هذه القوى والمطالب غير المستقرة هي التي تؤدي إلى استقطاب المكان، ولا يقع كل قطب إلا بوصفه الاستبعادَ أو التأجيلَ المؤقتَ لنقيضه.

وإذا تحولنا من القرية إلى المدينة، فإن الأمور تبدو في البداية مختلفة نوعًا ما. ويؤكد عمل أندريه ريمون بشأن المدن العربية الكبرى في القرن الثامنَ عشرَ على التمايز بين العالم

العام للمساجد والأسواق في الطرق الرئيسية، والعالم الخاص المحصور حول أفنية البيوت، والتي لا تُطلُّ على الشوارع بل على أزقَّة تغلق بواباتها المُطلَّة على الشوارع ليلاً بصفة مستديمة. وفي القاهرة العثمانية، فإن هذه الأزقَّة المؤدية إلى الأفنية يقال إنها كانت تشكِّل نحو نصف الطول الإجمالي لشوارع المدينة(1). وكانت شوارعُ الأسواق متميزةً عن مثل هذه الأزقة بوصفها أماكنَ عامةً يمكن للغرباء عن المدينة دخولها والاتجار فيها. وكانت المنازعات التي يدخل الغرباء كأطراف فيها تتطلب تدخل الموظفين العموميين، الذين لا يتدخلون بتاتًا في المنازعات الخاصة التي تدور في الفناء أو الزقاق.

لكن التمايز بين الخارج العام والسياج المنزلي لم يكن هو أيضًا حدًا ثابتًا ما، وكانت شوارعُ الأسواق خطوطَ تغلغل من خارج المدينة، حيث كانت الطرق الخارجية تمتدُّ إلى الداخل الحَضَري. وكانت هي أيضًا تشكل مجرد «سياج فارغ» كالفناء، كما كتب روبيرتو بيراردي، يمتدُّ في شكل مستقيم لاحتواء الغريب الزائر. وكانت لها هي أيضًا بوابات، تفصل المدينة إلى أحياء. وفي الليل، كانت بوابات المدينة تُغلَق دون العالم الخارجي، وكانت بوابات الأزقَّة تُغلَق دون الشوارع والحارات، وكانت بوابات الشوارع والحارات تُغلَق دون الطريق الرئيسي، بينما كانت بوابات الطريق الرئيسي تُغلَق دون الأحياء المجاورة. وقد كتب بيراردي إن المدينة عبارة عن «شبكة مؤلفة من السياجات، ومن الموانع والحقوق المكفولة، وليس بين لحظة سماحها ولحظة منعها ما هو أكثر من انزلاق، والواقع أن هذا الانزلاق بين درجات الفتح وإمكانية الدخول، والإغلاق والاستبعاد، هو ما يُعَاش في الممارسة اليومية»(2). وبدلاً من حدٍّ ثابت يقسم المدينة إلى جزءين، العام والخاص، الخارج والداخل، فإن هناك درجات من إمكانية الدخول والاستبعاد تُقرِّرُها، بأشكال مختلفة، العلاقاتُ بين الأشخاص الذين تشملهم هذه العلاقات، كما يُقَرِّرها الوقتُ والظرفُ.

الحياة البيتية (الداخلية):

لقد كانت العلاقةُ الديناميةُ بين الفتح والإغلاق هي السمةَ الملازمةَ لحياة حَضَرية ترفض السماح لشيء بالانفصال كإطار لها. ودون الوقع الحَضَري لإطار لا يمكن أن يكون هناك

---

(1) Raymond, Grandes villes arabes, p. 186.

(2) Roberto Beradi, 'Espace et ville en pays d'Islam', in D. Cheevallier, ed., L'Espace sociale de la ville arabe, p. 106

انقسام ثابت إلى خارج وداخل. وتتطابق مع هذا الانقسام، تبعًا لذلك، مسألة «معنى» المدينة. والحال أن المدينة التي ليس لها خارج ثابت هي، على أية حال، مدينة دون واجهات خارجية بوجه عام. ويمكن استخلاص مغزى ذلك من تجربة زائر أوروبي. فالأوروبي، سواء كان سائحًا أو عالمًا، كان يتوقع أن يجد نظامًا على شكل خطٍّ غير ملتبس يفصل ما هو في الداخل عما هو في الخارج، شأنه في ذلك شأن بوابات المَعرض أو غلاف كتاب. وهذا الانفصال هو ما كان يسمح للأوروبيين بفهم شيء ما من الأشياء، هو ما كان يسمح لهم بقراءته، ولنأخذ قراءة أليكسيس دو توكفيل التالية لمدينة الجزائر، مرئية من البحر، في عام ١٨٤١:

إن الكل يبيِّن بوضوح بالغ مَظهَر حياتهم الخاصة. وتُصَوِّر العمارةُ ضروراتهم وعاداتهم، والتي لا تَنتُج عن حرارة المناخ وحدها. فهي تصور بصورة جيدة إلى أبعد حدٍّ الحالةَ السياسيةَ والاجتماعيةَ للأمم الإسلامية والشرقية: تعدد الزوجات، عزل المرأة، غياب كل حياة سياسية، وحكومة استبدادية ومرتابة تجبر الناس على أن يَحيَوا حَيَوَاتٍ محتجبةً وعلى أن يَسعَوا إلى كل إشباع روحي داخل الحياة الخاصة للأسرة(١).

والحال أن مدينة الجزائر، خلافًا للقاهرة كما رأينا، كانت مدينةً قُدِّر لها أن تكون مرئية بوضوح لمُراقب خارجي، من سفينة في البحر، والواقع أنها كانت مرئيةً بدرجة كبيرة من الوضوح بحيث إن مستثمرين من مارسيليا قاموا في عام ١٨٣٠ بتحويل سفينة إلى فندق عائم وأخذوا السياحَ لمشاهدة قصف المدينة واحتلالها من جانب الفرنسيين. (وهكذا فإن الاستعمار الأوروبي للشرق الأوسط قد بدأ إشراك الصناعة السياحية الجديدة منذ فعله العنيف الأول). وقد وصل توكفيل بعد عقد من الزمان لكي يدرس تقدم هذا الاحتلال، وكان قد أصبح بالفعل داخل فرنسا «خبيرًا» في الشئون الجزائرية، وواحدًا من أكثر الداعين سفورًا في مجلس النواب إلى استكمال احتلال البلد واستعماره(٢).

---

(1) Alexis de Tocqueville, 'Notes du voyage en Algérie de 1841', Oeuvres complètes, gen. ed. J.P. Mayer, vol. 5, Voyages en Angleterre, Irlande, Suisse et Algérie, ed. J.P. Mayar and André Jardin (paris: Gallimard, 1958). part 2, p. 192

(2) Melvin Richter, 'Tocqueville on Algeria", Review of Politics 25 (1963): 369-98;

وفيما يتعلق بالفندق العائم انظر

Charles-Henri Favrod, La révolution algérienne, cited willeam B. Quandt, Revolution and Political Leaderhip: Algeria 1954- 68 (Cambridge: MIT Press, 1969), p. 3.

ومن الخارج ومن مسافة يرى توكفيل المدينة بوصفها «كُلاًّ»، أي كصورة أو تمثيل وهو يفسر هذه الصورة بحسبان أن المدينة مبنية من تقابل بين خارج وداخل، الأول مرئي والآخر غير مرئي. ويجري اعتبارُ الخارج المرئي، أو «العمارة» تمثيلاً للحياة البيتية (الداخلية) غير المرئية. فالحال أن العمارة «تصورِّ ضرورات وعادات» هذه الحياة الداخلية، بل وتصورِّ الحياةَ الإسلاميةَ والشرقيةَ بوجه عام. وفي إيماءة ثقافة مميزة، تجري قراءة الحياة بوصفها معنًى داخليًا غيرَ مرئي يتكشف في شكل مادي خارجي، والمعنى شيء لا يتكشف إلا للمُراقِب الخارجي، المنفصل والذي يرى العالمَ بوصفه تمثيلاً.

والمشكلة في هذا التصور ليست أن توكفيل قد أساء القراءة، فإساءة القراءة تعني أن من الممكن أن تكون هناك قراءةٌ صائبةٌ لما بُنِيَت مدينةُ الجزائر كي تمثلَه. على أن مدينة الجزائر، شأنها في ذلك شأن القاهرة، لم تُبنَ وفقَ ميثولوجيا التمثيل السهلة، ولم تعرض «عمارة» أو إطارًا خارجيًا يزعم «تصوير» حياتها الداخلية، وفهمها يتطلب إيماءات مختلفةً عن إيماءات السائح المثقف الذي ينظر إلى المدينة من البحر. لكن توكفيل عاجز عَن التحرر عن عادة السائح في النظر إلى الأشياء كموضوعات خارجية. وخصائص الحياة التي يراها عندئذ، والمواتية للاستعمار الذي يدافع عنه، أنها سرية، ومرتابة، ودون حياة سياسية أو عامةً، ليست أكثرَ من نتائج قراءتها كما لو كانت تمثيلاً.

والحال أن الدارسين الغربيين لمجتمعات الشرق الأوسط منذ توكفيل لم يثيروا عمومًا مشكلة التمثيل هذه. وبدلاً من ذلك فإنهم غالبًا ما نظروا إلى ما اعتبروه أشكالها الحَضَرية المتميزة، أو - في الواقع - غياب مثل هذه الأشكال، أحد أبرز السمات المميزة لثقافة الشرق الأوسط. وقد وصف «تاريخ كمبريدج للإسلام» الحياةَ الحَضَريةَ بأنها نموذج أو مثال في مركز الإسلام، لكنه مثال يصبح تجسيدُه الماديُّ الغريبُ في مدن الشرق الأوسط القائمة «مفارقةً» من «مفارقات» المجتمع الإسلامي:

لم يَخلُق المثالُ الحَضَري للإسلام أيَّةَ أشكال، أيَّةَ بنية حَضَرية. . وقد استعاض عن تضامن مجتمع جماعي برُكَام شاذٍّ غير منظم من الأحياء والعناصر المتباينة وعن طريق مُفارَقة جدّ مثيرة في الواقع، فإن هذا الدِّين المُفعَم بمثال حياة حَضَرية، قد أنتج نفيَ النظام الحَضَري نفسه(1).

(1) P.M. Holt, Ann K.S. Lambton, and Bernard Lewis, eds., The Cambridge History of Islam, 2 vols. (Cambridge: Cambridge University Press, 1970), 2: 256-7.

والشكوى التي يمكن الإعراب عنها بشأن هذه الأنواع من الأوصاف للشرق الأوسط ليست أنها مشوهة، من جرّاء الافتراضات الثقافية العادية لأصحابها، أو أنها إساءاتُ تمثيل. فهذه الكلمات تعني الوجودَ البسيطَ لموضوع أصلي، يمكن إيجاد تمثيل دقيق له. بل إنها تظَل غافلةً عن الطبيعة الخاصة، التاريخية لهذا التمايز المطلق بين التمثيل والأصل. وهذه الغفلة هي ما يُنتِج ما يُسمَّى بمفارقات الإسلام، فالحال أن «النظام الحَضَري» أو «البُنى الحَضَرية» التي تجد مثل هذه الأوصاف أنها غائبة يجري افتراض أنها النظام نفسه أو البنية نفسها، بدلاً من أن تكون، كما رأينا في باريس، وقع تقنية بناء يبدو أنه يقسم العالم إلى بُني متصورة وتحقيقها المادي، إلى تمثيلات ومجرد أصول. وليس هناك مجرد أصول كهذه بل مجرد عملية تقرير التظاهر بأنها موجودة، وعملية نسيان لهذا القرار.

ويقال لنا أحيانًا إن ما تفتقر إليه هذه الحياة الحَضَرية الشاذَّةُ بوجه خاص هو المؤسسات الرسمية - «البنية العقلية» للمدينة «المادية»[1]. وعندما نتحدث عن مؤسسة، غالبًا ما تكمن في مكان ما من تفكيرنا صورةُ مبنًى أو شارعٍ. فالمبنى مرادف لمؤسسة يعطي خارجًا مرئيًا لـ«بنية عقلية» غير مرئية، ومن الصعب بدرجة ملحوظة تصور مؤسسة عامة دون تصور المبنى أو الشارع الذي يمثلها. ومدن الشرق الأوسط، المفتقرة إلى «المؤسسات»، تفتقر بشكل أخص إلى المباني العامة المهيبة التي يمكن أن تحتوي مؤسسة، وتمثلها. ولعله من الجدير التفكيرُ في افتراضاتنا عن البنية الحَضَرية من زاوية هذه المسألة البسيطة. ويمكن البحث عن مزيد من العون في كتابات ابن خلدون وغيره من المؤرِّخين والجغرافيين العرب. ففي مثل هذه الأعمال، بل وفي الوثائق اليومية والمراسلات التي وصلت إلينا من الماضي قبل الحديث لمدينة كالقاهرة، لا يُشَار بتاتًا إلى الأنشطة الرسمية بالإحالة إلى، أو من زاوية، مبنىً مهيب؛ ويقال لنا إنه «لا يبدو أن هناك» في الإيضاحات المخطوطة «تصوراً معماريًا مميزًا لمبنًى رسمي مفتوح للعموم». وقد جرى فهم الحياة الحَضَرية والإشارة إليها في المصادر المكتوبة «حسب الوظيفة، وليس

---

(١) إن ما أود تناوله ليس هو الجوانب المادية، الطوبوغرافية الحديثة الإسلامية، بل هو بنيتها الداخلية. وأود أن أشير إلى أن إحدى الخصائص الأكثر جوهرية للمدينة الإسلامية هي عدم ترابط بنيتها، غياب المؤسسات البلدية المشتركة».

S.M. Stern, 'The constitution of the Islamic city', in Hourani and Stern, eds., The Islamic City, p. 26,

حسب المقر مطلقًا»[١]. أو بالأحرى، بما أننا قد رأينا في القرية النموذجية أن فكرة الوظيفة نفسها تعتمد على تقسيمات لنَسَق أُطُر، أن حياة المدينة قد جرى فهمها من زاوية وقوع وتكرار وقوع الممارسات، بدلاً من زاويةَ «عمارة - مادية أو مؤسسية - تنفصل عن الحياة نفسها، وتحتوي وتمثل معنى ما يجري القيام به».

افتراض ترانسندنتالي

لقد استدعى المثالُ المأخوذُ من توكفيل الجانبَ الثالثَ للتأطير والذي أود الإشارةَ إليه، أعني الطريقةَ التي يتيح بها مكانًا يمكن منه للفرد أن يراقب وكما رأينا في الفصل الأول فإن عواصم أوروبا الجديدة في القرن التاسعَ عشرَ، شأنها في ذلك شأن المَعارض العالمية في قلبها، قد بُنِيَت عمدًا حول المُراقب الفرد. وقد مدَّ هوسمان شوارعَ باريس الرئيسية بحيث تخلق منظورًا محددًا في عين الفَرد المتواجد في الوضع الصحيح، والذي أُتيح له موقع نظر خارجي عن طريق العمارة المُؤَطَّرة. وقد كتب زائر تونسي، إن المراقب «يَخَالَ نَفسَه في وسط المدينة، محاطًا بمبانيها، وشوارعها وحدائقها»[٢](*). لكن ما كان جديدًا لم يكن هو مجرد الوضع الخاص؛ فما كان جديدًا هو عين وقع امتلاك وضع. وكانت جدَّته الغريبة هي جدَّةَ الذاتية الحديثة، التي ليست علاقةً «طبيعيةً» للشخص مع العالم بل ابتداعًا يتميز بالتدقيق والفضول. فقد وُضعَت الذات خارج الواجهات الخارجية، شأنها في ذلك شأن الزائر لمَعرض، ومع ذلك فقد كانَت محاطةً بها ومحتواةً من جانبها، وكان وضعًا خارجيًا وداخليًا على حدٍّ سواء في آن واحد، وخلافًا لذلك، فإن القرية القبائلية أو مدن الشرق الأوسط قبل الكولونيالية لم تكن تتيح وضعًا كهذا، ولم تكن الخدعةُ المعماريةُ المتمثلةُ في الواجهات الخارجية ومواقع النظر قائمةً. ولم يكن الفرد يقف خارج عالم موضوعات بوصفه الفردَ المخاطَبَ من قبَله، ولا في مركزه بوصفه الفردَ الذي يوجد من زاويته، كما يبدو لنا، نظام ومعنى.

والحال أن تقنيات التأطير، وتثبيت داخل وخارج، وإيجاد وضع للذات المراقبة، هي ما يخلق مَظهَر نظامٍ، أي نظامًا يعمل من خلال مَظهَر. فالعالم يوضع أمام ذات مُراقِبة، كما لو

(1) Oleg Grabar, 'The illustrated maqamat of the thirteenth century: the bourgeoisie and the arts', in Hourani and stern, eds. The Islamic City, p. 213; Goitein, Mediterranean Society, 4: 34

(٢) محمد السنوسي، الاستطلاعات الباريسية في مَعرض سنة ١٨٨٩ (تونس ١٣٠٩ هجرية)، ص٢٤٢

(*) أعدنا ترجمة الاستشهاد عن الإنجليزية لتعذر العثور علي الأصل - المترجم.

كـان صورة شيء ما. ويحـدث نظامـه بوصـفـه العـلاقـة بين المُراقب والصـورة، والتي تظهـر وتجرب من زاوية العلاقة بين الصورة والخطة أو المعنى الذي تمثله. ويترتب على ذلك أن مَظهَر النظام هو في الوقت نفسه نظام مَظهَر، هرمية. ويظهر العالم للمراقب بوصفه علاقة بين الصورة والواقع، حيث الأولى حاضرة لكنها ثانوية، مجرد تمثيل، وحيث الآخر مُمَثَّلٌ فقط، لكنه أسبق، أكثر أصالة، أكثر واقعية. ونظام المَظهَر هذا هو ما يمكن تسميته بهرمية الحقيقة(1). وكما رأينا في الفصل الأول في حالة الزوار الأوروبيين للشرق، فمن زاوية مثل هذا الانقسام الهرمي، بين الصورة وما تعنيه، يجب استيعاب كل الواقع، كل الحقيقة. ولذا، فإن مناهج التنظيم، والتوزيع والتأطير التي تخلق الانقسام، هي الطريقة العادية لخلق وقع ما يُجريه الفرد الحديث بوصفه الواقعي فعلاً. وكان بناء القرى والمدن المنظمة في الشرق الأوسط أسلوَبًا خاصًا لإدخال هذا الوقع في سياسة الشرق الأوسط، بنفس الطريقة التي جرى إدخاله بها في العصر الحديث في سياسة أوروبا.

فمن أية نواحٍ كان نظام المَظهَر شيئًا جديدًا؟ سوف أحاول تبيان ذلك، مرة أخرى، باستخدام مثال البيت القبائلي. لقد أشرت إلى أن كل ما يحدث أو يطرح نفسه في العالم الذي يصفه بورديو، إنما يحدث بوصفه إمكانية خصوبة أو عقم، إمكانية لامتلاء الحياة أو لخوائها. والحياة العملية تُعَاش بوصفها اعتناءً بهذه الإمكانية. فهي تتطلب اعتناءً بالسبل العملية التي يمكن من خلالها لشيء أن يؤثر على شيء آخر أو أن يستثيره، السبل التي يمكن من خلالها للأشياء الموضوعة أحدها بجانب الآخر أن يحلَّ أحدها محلَّ الآخر أو أن يمتزج أحدها بالآخر، والاعتناء بالكيفية التي يمكن بها لشيء إنتاج القوة في شيء والصعب في شيء آخر، بالكيفية التي تتغلغل بها الأشياء، أو تسمح بالتغلغل. وبعبارة أخرى، فإن المرء بحاجة إلى فهم علاقات التماثل أو التآزر بين الأشياء، وعلاقات التنافر والخلاف. والمرء بحاجة إلى فهم التناظر بين مرارة الصفراء ومرارة الحنظل، أو بين البذرة التي تنتفخ في التربة وتلك التي تنتفخ في رحم المرأة. ومثل هذه العلاقات ليست علاقات بين موضوع ومعناه، كما يمكن أن نقول، أو بين رمز وفكرته التي يرمز إليها.

وليس في هذا العالم شيء رمزي. فالصفراء لا ترتبط بالحنظل لأنه يرمز إلى المرارة، فهي تحدث بوصفها أثر المرارة. والبذرة لا تمثل الخصوبة، ومن ثم المرأة، فهي نفسها خصبة،

(1) Cf. Jacques Derrida, 'The double session', in Dissemination, p. 191.

وتستنسخ في نفسها انتفاخ بطن امرأة حبلى. وليست البذرة ولا المرأة مجرد علامة دالة على الأخرى، ويترتب على ذلك أن أيًا منهما ليست لها وضعية الأصل، المحال إليه «الواقعي» أو المعنى الذي تكون الأخرى مجرد علامة له. وبناءً على ذلك، فإن هذه الارتباطات لا يجب تفسيرها من زاوية أية «شفرة» رمزية أو ثقافية، المجال المنفصل الذي نتخيل أن مثل هذه العلامات تنتمي إليه. فهي تنبثق كلية من سياق الخاص، في الاختلاف والتماثل الذي ينتج السياق، وهي كثيرة ومتنوعة كثرة وتنوع مثل هذه السياقات. وهذا شيء لا يمكن بتاتًا لفكرة الشفرة، المنفصلة بحكم التعريف عن السياق، أن تحتويه. وهكذا فإن الصفراء، فيما يقول لنا بورديو، ترتبط بالمرارة ومن ثم فإنها مساوية للحنظل، لكنها مساوية أيضًا للدفلي وللقار (وتتعارض، هي وهذان، مع عسل النحل)؛ وهي في سياقات أخرى ترتبط بالخضرة، ومن ثم تكون مساوية للسحالي وللون الأخضر؛ وترتبط السحالي، بدورها، بالضفادع ومن ثم بخصائص أخرى، وهلمَّ جرًا، والحال أن مثل هذه التماثلات والاستنساخات لا تشكل مجالاً منفصلاً للمعنى، شفرة منفصلة عن الأشياء نفسها: ومن هنا فإن فكرة «الشيء» نفسها لا ترد وللسبب نفسه فليست هناك «طبيعة» بالمعنى الذي يخصنا عن المشار إليه الأكبر، المدلول الذي يجري تمييز مثل هذه الشرفة من زاويته. وهناك، بدلاً من ذلك العلاقات الضرورية الفاعلية في عالم لا يقع فيه شيء إلا بوصفه شيئًا يشبه، أو يختلف عن، أو يستنسخ، أو يعيد أداء دور شيء آخر(١).

والحال أن هذا التردد للأصداء وللتكرارات يحمل دائمًا مفارقة مثل هذا التكرار - فما يقع هو دائمًا مماثل لما يستنسخه ومع ذلك فهو مختلف عنه. وبالإضافة إلى ذلك ففي مواجهة هذه المفارقة، لا يتقرر شيء، ولا تقبل أية هرمية بسيطة للحقيقة وحيث يقع كل شيء بوصفه أثر ما يسبقه أو يليه، لا يتحدد شيء بوصفه الأصل، ولا ينفصل شيء عما يشبه أو يكرر، كأصل

(1) Bourdieu, Outline, pp. 109- 58; cf. Michel Foucault, The Order of Things: An Archaeology of the Human Sciences, pp. 17-30. Jeans Baudrillard, The Mirror of Production, pp. 53- 67.

وبالمثل، فيما يتعلق بجرار الحبوب المستخدمة في الطهو: فلتحديد كمية الحبوب الموجودة فيها، توجد بهذه الجرار فتحات جانبية بحيث تشير الحبوب نفسها إلى مستواها ولا تقاس الكمية عن طريق جهاز قياس ما، كما لا تمثل على مستوى مجرد «تدل» تقسيماته الاعتباطية على كمية معينة، ولا وجود لشيء اعتباطي بهذا المعنى، فالحبوب تشير إلى مستواها عن طريق إشارة مباشرة أو تكرار مباشر.

بسيط، مطابق لنفسه، الطريقة التي يجري بها تصور وجود عالم واقعي خارج المَعرِض. وليس هناك نظام هرمي للمقلد وما يجري تقليده، كما في مَعرِض أو أي نسق آخر للتمثيل، فكل شيء يُقلَّد ويجري تقليده وليس هناك انقسام بسيط إلى نظام للنسخ ونظام للأصول، نظام للصور ولما تمثله للمعروضات وللواقع، للنص وللعالم الواقعي، للدالات وللمدلولات الانقسام البسيط الهرمي الذي هو بالنسبة للعالم الحديث، «ما يؤلف النظام» فنظام هذا العالم ليس نظام مَظهَر[1].

ولنتذكر مختتمين هذا الفصل أن الزائر الأوروبي قد وصل إلى هذا العالم تحتويه عادة فكرية عصيّة على الاهتزاز، عادة جرى إنماؤها في عالم المَعرِض. وصل مُزَوَّدًا بإيمان ميتافيزيقي، بلاهوت، أو بما سماه ماكس فيبر في بحثه عن «الموضوعية في العلم الاجتماعي» بـ«افتراض ترانسندنتالي» هو «أننا كائنات ثقافية» وقد قصد فيبر بذلك أننا نوع من الكائنات «يتخذ موقفًا قصديًا إزاء العالم ويخلع عليه مغزى»[2]. وبفضل هذا الموقف الخاص، فإن مثل هذا «المغزى» يمكن أن يظهر بوصفه شيئًا منفصلاً عن «اللانهائية عديمة المعنى»، كما أصبح بوسع فيبر القول، للعالم الخارجي، ويكمن المغزى في المكان المفتوح، في أرض المَعرِض العالمي وفي التنظيم المماثل للعالم القائم خارجه، بين ذاتية إنسانية وواقعية العالم الخاملة. ويقول لنا فيبر «ليست هناك قوى فاعلة غامضة عصيّة على الحساب. . . وبوسع المرء، من حيث المبدأ، أن يسيطر على جميع الأشياء عن طريق الحساب. وهذا يعني أن العالم يتحرر من السحر، ولم يعد المرء بحاجة إلى الاستعانة بالسبل السحرية لكي يسيطر على الأرواح أو يتوسل إليها، مثلما فعل المتوحشون، الذين اعتبروا مثل هذه القوى الغامضة موجودة»[3].

والحال أن الفرد الحديث بإيمانه بـ«عالم خارجي» وراء المَعرِض، ووراء كل عملية تمثيل، كمجال خامل ومتحرر من السحر - المدلول الأكبر، المشار إليه، الفارغ، الشرق الذي لا يتغير - إنما يخضع لسحر جديد وأكثر خبثًا. فالكيان الموضوعي الخامل لهذا العالم هو وقع

(1) Derrida, 'The double session', p. 191.

(2) Max Weber. ' "Objectivity" in social and social policy', in The Methodology of the Social Sciences, p. 81.

التشديد في الأصل، والترجمة محورة.

(3) Max Weber, 'Science as a vocation', From Max Weber: Essays in Sociology, trans. H.H. Gerth and C. Wright Mills (New York: Oxford University Press, 1946), p. 139.

لتنظيمه، لترتيبه كما لو كان مَعرِضًا، وهو ترتيب يسمح بأن يظهر أن هناك وجودًا منفصلاً عن مثل هذا «العالم الخارجي» لكيانٍ ترانسندنتالي اسمه الثقافة، شفرة أو نص أو خريطة معرفية يكتسب «العالم» من خلال وجودها الغامض «مغزاه». ومن هنا فإن الزوّار الأوروبيين للشرق الأوسط، الذين لم يعودوا متوحشين بل مدجنين على هيئة علماء وجنود وسياح، طيِّعين وفضوليين شأنهم في ذلك شأن الملايين من زوّار المَعرِض، يتخذون موقفهم القصدى إزاء مُدُنِه وحياته، ويتوسلون إلى أرواح المغزى أن تنطق.

●●●